سورة يوسف
دروس لا تنتهي

تأليف صهيب العبيدي

سورة يوسف
دروسٌ لا تنتهي

سورة يوسف
دروسٌ لا تنتهي

تأليف
صهيب العبيدي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

العراق- بغداد

مطبعة نوار دجلة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد ..

فإنّ سورة يوسف هي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي اختصت بذكر حياة نبي من الأنبياء من أولها الى آخرها، وما لاقاه من فتن ومحن ومصائب وبتفصيل دقيق مُذ كان طفلاً صغيراً وحتى دخوله مرحلة الكهولة، وذلك تسليةً للنبي الكريم محمد ﷺ (في فترة حرجة عصيبة من حياته، حين توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد ان فقد نصيريه زوجه الطاهر الحنون (خديجة) وعمه (أبا طالب) الذي كان له خير نصير ومعين، وبوفاتهما اشتدّ الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، حتى عُرِف ذلك العام بعام الحزن، في ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمؤمنون الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش، كان الله ﷻ ينزل على نبيه الكريم هذه السورة تسليةً له وتخفيفاً لآلامه بذكر قصص المرسلين، وكأن الله تعالى يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام : لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك وإيذائهم لك، فإن بعد الشدة فرجاً وبعد الضيق مخرجاً، انظر الى أخيك (يوسف) وتمعن ما حدث له من صنوف البلايا والمحن وكيف أنّه لمّا صبر على الأذى في سبيل العقيدة نقله الله من السجن الى القصر وجعله عزيزاً في ارض مصر، فكان السيد المطاع والعزيز المكرّم ... وهكذا أفعل بأوليائي ومن صبر على بلائي، فلا بد أن توطد النفس على تحمل البلاء اقتداءً بمن سبقك من المرسلين)[1] .

وجاءت السورة الكريمة بهذا التفصيل لأن المؤمن مبتلى على قدر إيمانه، فأشد الناس ابتلاءً هم

(١) صفوة التفاسير للصابوني ٢/ ٣٤ – ٣٥ مع بعض الاختصار .

الانبياء ثم الامثل فالأمثل (كما يقول نبينا محمد ﷺ) فإذا كان الأنبياء وهم صفوة خلق الله وأحبّهم اليه وأشدهم طاعةً له يتعرضون لهذه الابتلاءات ويصبرون ويتحملون ولا يحيدون عن الصراط المستقيم، فعلى المؤمنين الاقتداء بهم والثبات على نهجهم لكي ينعموا في النهاية برضا الله تعالى والفوز بالجنة.

وكذلك فإن السورة الكريمة تمثل الواقع الذي يعيشه الانسان في كل زمان ومكان، وبالأخص الإنسان المؤمن الملتزم بدينه وعقيدته، فالحسد بين البشر موجود مُذ كان على هذه الارض ستة اشخاص فقط (آدم عليه السلام وزوجه حواء وولداهما قابيل وهابيل وأختاهما) وإلى قيام الساعة، وكذلكَ فتنة النساء وإغواؤهن وظلم الانسان لأخيه الانسان، فهذهِ الحياة الدنيا ليست باقية وانما هي مؤقتة .. زائلة .. فانية .. وهي مجرد زرع وعمل للحياة الأبدية الخالدة، يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾[1] فهي الدار الباقية التي لا همَّ فيها ولا غَمّ ولا مرض ولا نصَب ولا وصب .. (ومع ان سورة يوسف مكية، والسور المكية تحمل في الغالب طابع الانذار والتهديد، الا انها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طرية ندية في أسلوب ممتع لطيف سلس رقيق يحمل جو الانس والرحمة والرأفة والحنان، ولهذا قال خالد بن معدان: (سورة يوسف ومريم مما يتفكّه بهما اهل الجنة في الجنة) .

وقال عطاء : (لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها)[2] (وقد جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة في مواطن عديدة بقصد العِظة والاعتبار ولكن بإيجاز دون توسع لإستكمال جميع حلقات القصة، وللتشويق إلى سماع الأخبار دون سآمة أو ملل.

أما سورة يوسف فقد ذُكرت حلقاتها هنا متتابعة بإسهاب وإطناب ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص الرسل لتشير الى إعجاز القرآن في المجمل والمفصّل وفي حالتي الإيجاز والإطناب، فسبحان الملك العلي الوهاب)[3] هي قصة الحياة في كل زمان ومكان، بكل ما تحمله من أفراح

(١) سورة العنكبوت : آية ٦٤

(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٣٤ .

(٣) صفوة التفاسير ٢/ ٣٥ .

وأحزان، قصة الصراع الدائم بين الانسان والشيطان، بين الحق والباطل، بين الخير والشر .

سبب النزول : (روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وما حصل له مع إخوته من أولاد يعقوب فنزلت السورة)[1] .

❊ ❊ ❊

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٣٧ .

المحنة الأولى

﴿ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ ﴾

سورة يوسف : آية ١٥

إبتدأت السورة الكريمة ببداية ... ولكن أيّ بداية هي ؟؟ إنها بداية عجيبة ... غريبة... حالها حال قسم من السور الآخرى ولكن مع اختلاف في الحروف ... ﴿ الٓر ﴾ ... ألف ... لام ...را .

إنها بداية لم يسمعها العرب من قبل ولم يألفوها ولم يعهدوها، والعجيب أن اي انسان مهما كان شاعراً أو خطيباً أو أديباً أو..أو ..أو .. لو ابتدأ كلامه أو خطبته أو شعره أو نثره بمثل هذه الحروف المقطعة لأحسّ بالنشاز وعدم التوافق والترابط .

ولكن في القرآن الكريم ... وفي القرآن الكريم وحده ... ولأنه كلام الله تبارك وتعالى الإله الواحد الأحد ... فإنك تشعر به متوافقاً متجانساً متناغماً مترابطاً حلواً عذباً ... وهذا هو سرّ الإعجاز القرآني ، حتى أن الحديث النبوي الشريف وبضمنه الحديث القدسي لم يبتدىء بالحروف المقطعة ... فهي خاصة بالقرآن الكريم، والعجيب ايضاً أن أي احد كان من الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يسأل النبي الكريم ﷺ عن سرّ هذه الحروف المقطعة ولا عن تفسيرها، ربما لأنهم فهموها كما فسَّرها بعض العلماء بأنها إشارة الى الإعجاز والتحدي، فمن هذه الحروف وأمثالها يتألف القرآن الكريم ... وهي نفس حروف اللغة العربية التي يتكلم بها فطاحل اللغة العربية وأساطينها، ولكنهم عجزوا ويعجزون وسيعجزون عن الإتيان بمثله أو بعشرِ سورٍ من مثله أو بأقصر سورة من مثله ... والتحدي قائم الى يوم القيامة ... وهو اكبر وأعظم حجة لنا على من لم يؤمن به .

﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ وقد أشار للبعيد (تلك) ولم يقل (هذه) وهي دلالة أو (إشارة لعظمته وبُعد مرتبته)[1] وعلو منزلته وشرفه (فتلكَ الآيات التي أُنزلت اليك يامحمد هي آيات

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ١٤٥ .

الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حججه وبراهينه، الواضح في معانيه)[1] .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ والكلام بصيغة الجمع والمراد به الله الواحد الأحد للتعظيم والتفخيم، وقد أنزله الله تعالى باللغة العربية وهي ارقى وأكمل وأحسن لغة على هذه الارض .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (أي لكي تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم، قال بعضهم : نزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على اشرف الرسل بسفارة اشرف الملائكة وكان ذلك في اشرف بقاع الارض وفي أشرف شهور السنة وهو رمضان فكَمُلَ لهُ الشرف من كل الوجوه)[2].

والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لا يملُّ منه قارئه وسامعه مهما أعادَ قراءته وتلاوته وسماعه المرة تلو الاخرى ... بل يزداد شوقاً ومحبةً ورغبةً لإعادة قراءته .. كيفَ لا وهو كلام رب العزة تبارك وتعالى؟ ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ (أي نحن نحدثك يامحمد ونروي لك أخبار الامم السابقة باصدق كلام وأحسن بيان)[3] قصص كلها حكمة وموعظة وعبرة للاستفادة منها وليس لمجرد التسلية .﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ تأتيك هذه القصص يامحمد عن طريق الوحي الذي اوحيناه اليك وليس عن اي طريق آخر قد يلتبس فيه الحق بالباطل، فيجب على جميع الناس أن يؤمنوا به لأنه صادر من رب العالمين .

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ فلولا إيحاؤنا وإنزالنا إليك هذا القرآن المعجز وما تضمنه من أخبار الامم السابقة وقصص الأنبياء والمرسلين فمن اين لك ان تعرف ذلك يامحمد؟ خصوصاً وأن الكتب السابقة كالتوراة والانجيل قد طرأ عليها التغيير والتحريف والتبديل والحذف والإضافة، وانك يا محمد أُمّيّ لا تقرأ ولا تكتب، وهذه الصفة في رسول الله ﷺ (صفة الأمّيّة) ليست صفة نقص أو عيب وإنما هي زيادة في الاعجاز والتحدي ودحض لِشُبَهْ الكفار والمعاندين، فمع كونه أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب فقد جاء العرب والعالم أجمع بأبلغ وأفصح وأكمل وأعظم كتاب عرفته البشرية من عند الله تبارك وتعالى، ومع هذه الحجج الدامغة والبراهين

(١) صفوة التفاسير للصابوني ٢/ ٣٧ .

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ١٤٥ .

(٣) صفوة التفاسير ٢/ ٣٧ .

الساطعة فقد كذَّب المكذِّبون وجحد الجاحدون ولم يؤمنوا بهذا القرآن العظيم فمأواهم النار وبئس المصير. ثم تبدأ القصة برؤيا عجيبة ... غريبة ... لم يستطع الطفل الصغير الجميل يوسف أن يفهمها، فذهب الى ابيه نبي الله يعقوب عليه السلام ليفسرها له ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ تهلّل وجه الاب الكريم فرحاً بهذه الرؤيا العظيمة، وفهم معناها ومغزاها ... وهي أن الله تعالى قد إختار ابنه يوسف واصطفاه للنبوة كما اختاره واختار أباه اسحق وجده إبراهيم عليهم السلام من قبل، فأعظِمْ بها من نعمة،(وكان سِنّه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة)[1].

(ويوسف اسم عبراني تعريبه يزيد او زيادة)[2] ولكن مع شدة فرح يعقوب عليه السلام بهذه الرؤيا فقد خاف على ابنه الصغير الحبيب يوسف من حسد إخوته الكبار ... وهم إخوته لأبيه أي من أُم غير أُم يوسف ... فبادر الى تحذيرهِ من أن يقصص رؤياه عليهم ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ لأنهم بالتأكيد سوف يفهمون من هذه الرؤيا أن يوسف سوف ينال شرفاً وفضلاً من دونهم فيحاولون الكيد والاحتيال للإيقاع به وإهلاكه بسبب غيظهم وحسدهم ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ فالشيطان اللعين ظاهر العداوة لإبن آدم ... لا يألو جهداً للإيقاع به وإيراده موارد الهلاك ويستغل أي فرصة للإيقاع بين الأهل والأخوة والأصدقاء والتفرقة بينهم وزرع بذور الشقاق والكره والعداوة والحسد، (فهِمَ يعقوب من رؤيا يوسف أن الله تعالى يبلّغه مبلغاً من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه من حسد إخوته فنهاه أن يقص رؤياه عليهم)[3].

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ فمثلما اختارك رب العالمين عندما أراك هذه الرؤيا العظيمة كذلك يختارك للنبوة ويعلمك تفسير الرؤيا المنامية، (والاحاديث إسم

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٢٣٤.

(٢) محاسن التأويل ٦/ ١٤٤ .

(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٨٠ .

جمع للحديث، سُميت به الرؤيا لأنها إما حديث مَلَك او نفس أو شيطان)[1] ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ وهل هناك من نعمة أعظم من أن يختارهُ الله تعالى من بين ملايين البشر لتبليغ رسالته ودعوته ؟؟ فالنبوة أعظم وأسمى وأشرف مرتبة اذ يختاره الله لحمل دعوته الى الناس، فهي اصطفاء واختيار منه سبحانه وحده، وحسب مقتضيات علمه وحكمته جلَّ وعلا لذلك قال بعدها ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فهو تعالى وحده العليم بمن هو أهل لهذه النعمة العظيمة والمرتبة العالية والمنزلة السامية، حكيمٌ في تدبيره لشؤون خلقه فلا يصدر منه شيء الا عن حكمة بالغة، ولا يخفى أن في ذلك إشارة للنبي محمد ﷺ بتذكيره بهذه النعمة الجليلة التي أنعمها الله تعالى عليه وهي نعمة الاصطفاء للرسالة والنبوة وعليه أن يشكر الله تعالى أن جعله خاتم الانبياء والمرسلين وسيدهم، ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أي أن ما جرى وحدث بين يوسف وإخوته عبرٌ وعظات ودلائل وبراهين لمن سأل عن قصتهم وخبرهم .

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ من هنا بدأ عمل الشيطان الخبيث حين وسوس لإخوة يوسف بأن يوسف وأخاه الاصغر بنيامين شقيقه من الام والاب ... أحب الى نفس أبيهم يعقوب منهم ... مع أنهم جماعة أشداء أقوياء يمكن الاعتماد عليهم خلافاً للصغيرين... ونسوا أو تناسوا ان النفس البشرية قد جُبلت على حب الصغار والعطف عليهم واللعب معهم، وليس معنى ذلك أن يعقوب عليه السلام كان لا يحب أبناءه الكبار ولا يهتم بهم فهو نبي ويعرف الحقوق والواجبات جيداً ولكن هذا عمل الشيطان ونزغه ووسوسته لإبن آدم حتى يجعله يرى الحبة قُبة والحق باطلاً والباطل حقاً لكي يورده المهالك .

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي إنه في خطأ واضح لا شك فيه، فكيف يفضّل الصغار الضعاف على الجماعة الاشداء الأقوياء.

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ تركوا كل الحلول السلمية الحلال وذهبوا الى ما يعتقدون

(١) محاسن التأويل ٦/ ١٤٨ .

انه حلاً لمشكلتهم الا وهو قتل الصغير يوسف أو رميه في أرض بعيدة مجهولة ... أما كان باستطاعتهم أن يواجهوا أباهم ويطرحوا عليه المشكلة فيما يجدونه في أنفسهم وتحُل المشكلة سلمياً وينتهي كل شيء ؟؟ ولكن كما قلنا إن الشيطان اللعين يعمي ابن آدم عن رؤية الحق الواضح السهل ويصرفه عنه .

﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ بالتأكيد فإن أبانا بعد فترة من الزمن سوف ينسى يوسف ويُقْبِل علينا ولا يشغله أحد عنا ... ﴿ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ نفس الأفكار تتكرر عند البشر بسبب إغواء الشيطان ووسوسته .. إعمل ياإبن آدم اي عمل مخالف للشرع حتى لو كان كبيرة من الكبائر وبعدها تتوب الى الله وتذهب للحج وتمُحى جميع سيئاتك وتكون بعد ذلك صالحاً وكأن شيئاً لم يكن ... وينسى ابن آدم أو يتناسى العقوبة الربانية التي قد تُعجَّل له وينسى الموت الذي يتربص به ولا يدري متى يطرق بابه قبل التوبة أم بعدها ... أنت لا زلت شاباً قوياً وأنتِ لا زلتِ شابة جميلة في مُقتبل العمر فأي توبة وأي حج هذا الذي تتكلمون عنه ؟ تمتع بحياتك و شبابك وانتهز الفرص وأشبع رغباتك وأهواءك فالعمر طويل والفرص لا تتكرر وعندما يقترب عمرك من الستين أو السبعين ففي ذلك الوقت يمكنك أن تفكر ... نعم تفكر في التوبة والحج والالتزام !! وكأن الموت ممنوع عليه ان يصل الى الشباب !!

ما هي الا حيلة من حيل الشيطان إسمها التسويف، ويبدو من سياق الآيات أن يوسف عليه السلام التزم بنصيحة ابيه ولم يُحدِّث إخوته عن الرؤيا لأنهم لم يذكروا شيئاً عنها والله اعلم ولكن الحقد والحسد قد بلغ بهم مبلغاً بحيث اعمى بصرهم وبصيرتهم بسبب حب أبيهم ليوسف فكيف يكون حالهم لو علموا بأمر الرؤيا العجيبة ؟؟ ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ إستدرك أحدهم ورأى حلاً أهون من القتل وهو القاء يوسف في قعر البئر، والظاهر والله اعلم أن البئر او الجب المقصود كان إما خالياً من الماء أو فيه ماء قليل بحيث لا يغرق يوسف لأنهُ قال بعد ذلك ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ إن كنتم عازمين على التفريق بين يوسف وابيه فافعلوا ذلك (أي القاءه في الجب) يأخذه بعض المسافرين ولا

يستطيع الرجوع، ويبدو أن هذا الحل قد راق لهم .

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ أي يا أبانا ما الذي يجعلك لا تأمن على يوسف منا فلا تتركه معنا والحال والشأن أننا نحبه وننصح له ونحافظ عليه ونريد له الخير ﴿ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ أرسله معنا الى البادية غداً يأكل من الفواكه ويلعب بحرية ونشاط ونحن نُعنى به ونرعاه ونحافظ عليه ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ ﴾ فلا أصبر على فراقه والبعد عنه ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾ فربما سَهَوْتم عنه وغفلتم فيأكله الذئب (وكأنه لقنّهم الحُجة)[1] .

قال الزمخشري : (اعتذر إليهم بشيئين : احدهما إن ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة، والثاني خوفه عليه من الذئب اذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم)[2] ﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ فإذا وصل إليه الذئب وأكلهُ مع وجودهم ورعايتهم وحفظهم ليوسف وهم جماعة أشداء أقوياء فإنهم خاسرون ولا ينفعون لشيء وباطن الارض خير لهم من ظاهرها، حينئذٍ وافق الاب الكبير على ارساله معهم الى البادية بعد هذه التأكيدات والتطمينات مع شعوره بالقلق والخوف على ولده الصغير منهم اولاً ومن الحيوانات المفترسة ثانياً ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ ﴾ فهم قد عزموا واتفقوا جميعاً على القائه في الجب. ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ .

(قال الرازي : وفائدة هذا الوحي تأنيسُه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة)[3] وسوف يأتي اليوم الذي تُذكِّرهم فيه بما فعلوه بك وهم لا يشعرون أنك يوسف أو وهم لا يشعرون بهذا الوحي والله اعلم . ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾ رجعوا من البادية وقت العشاء وهم يبكون تصنعاً، (روي أن إمرأة تحاكمت الى شُرَيْح فبكت فقال الشعبي : يا أبا أمية أما تراها تبكي ؟ فقال شُريح : لقد جاء اخوة يوسف

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٣٨ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٤٨ .

(٣) الفخر الرازي ١٨/ ١٠٠ .

يبكون وهم ظَلَمَة كذَبَة، لا ينبغي للإنسان أن يقضي الا بالحق)[1].

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾ هكذا بكل بساطة، بالأمس قالوا لأبيهم ﴿ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ أما اليوم فإنهم جاءوا أباهم بقول عكس قول أمس ... لقد ذهبنا نرتع ونلعب وتركنا يوسف ليحفظ لنا متاعنا!! نعم يوسف الصغير الضعيف يتركونه وحيداً ليحفظ لهم متاعهم من اللصوص والذئاب ... إنها كذبة ما بعدها كذبة ... وهي حجة واهية ضعيفة لا يعقلها إنسان. ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ وكأنهم يعرفون أنها حجة لا يعقلها أحد حتى ولو كانوا صادقين في دعواهم . ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ ﴾ (قال ابن عباس : ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص فلما جاءوا يعقوب قال :كذبتم لو أكله الذئب لخرق قميصه)[2]﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًا ﴾ عرف أنهم يكذبون لغايةٍ ما في أنفسهم، وتحقق ما كان يخشاه من كيدهم بيوسف ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ ﴾ أي فسأصبرُ صبراً جميلاً ولا أدع مجالاً للغضب ان يتسلل الى نفسي (والصبرُ الجميل هو ما لا شكوى فيه الى الخلق ولا جزع، رضىً بقضاء الله ووقوفاً مع مقتضى العبودية)[3]﴿ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ فأستعين بالله تعالى وحده على تحمل ما تصفونه من الكذب والافتراء.

(قال الرازي: لأن الدواعي النفسانية تدعوه الى اظهار الجزع، وهي قوية، والدواعي الروحانية تدعوه الى الصبر والرضا، فكأنهما في تحارب وتجالد، فما لم تحصل إعانته تعالى لم تحصل الغلبة فقوله ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ ﴾ يجري مجرى قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ ﴾ يجري مجرى قوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[4]﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥ ﴾ مرَّ قوم مسافرون قريباً من الجب فأرسلوا أحدهم ليجلب لهم الماء فأنزل الدلو في الجب فقفز يوسف

(١) الفخر الرازي ١٨/ ١٠١.
(٢) الطبري ١٢/ ١٦٤ .
(٣) محاسن التأويل ٦/ ١٦١.
(٤) الفخر الرازي ١٨/ ١٠٥ .

في الدلو . ﴿ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ ﴾ عندما سحب الدلو للأعلى وجد يوسف الصغير الجميل في الدلو فاستبشر به وفرح ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗ ﴾ أخْفَوهُ عن أعين الناس وكأنه بضاعة ليبيعوه بدلاً من ان يسألوا عن أهله ويردوه اليهم ممايدل على أنهم كانوا قوماً غير صالحين .

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ فهو تعالى يعلم السرَّ وأخفى ويعلم ما تفكر به عقولهم وما تنويه قلوبهم ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ ﴾ فباعوه بثمنٍ قليل لئلا ينكشف امرهم ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ (أي وكانوا في يوسف من الزاهدين الذين لا يرغبون فيه ولذلك باعوه بأبخس الاثمان)[1] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾.

(قال ابن عباس : كان اسم الذي اشتراه (قطفير) وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر)[2] فقال لامرأته أكرميهِ ولا تهينيه وتذليه ولا تعامليه بقسوة ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾ (أي نتبناه حيث لم يكن يولد لهما ولد)[3] .

وهذا من لطف الله تعالى بيوسف ورعايته له ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فمثلما أحاطه الله تعالى برعايته وعنايته وجعل عزيز مصر يكرمه ويُعنى به، كذلك جعل الله تعالى ليوسف مكانة رفيعة في أرض مصر، ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾ وزيادةً على هذه النعم فإن الله تعالى علّمه تفسير المنامات عن طريق الوحي ولا شك أنها المعجزة التي وهبها الله تعالى لسيدنا يوسف عليه السلام ليتمكن من دعوة الناس الى عبادة الواحد الأحد ونبذ الأصنام ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ ﴾ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فلا يعجزه شيء، وفيه إشارة لطيفة الى ان أخوة يوسف أرادوا به شراً وسوءاً ولكن أمر الله تعالى هو الغالب فأحاطهُ برعايته وعنايته، وفيه إشارة أيضاً الى ان المشركين والكفار مهما ارادوا بالنبي محمد ﷺ من شر أو سوء و مهما أرادوا ان يصدوا الناس عن دين الاسلام فإن أمر الله تعالى وقضاءه هو النافذ فلا يقف شيء امام دعوة

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٣٩ .

(٢) الطبري ١٢/ ١٧٥.

(٣) صفوة التفاسير ٢/ ٣٩.

الحق ودين الحق الإسلام .

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فكثيرٌ من الناس لا يعلمون ان الامر كله بيد الله تعالى... أمور الناس والخلائق والكون بكل ما فيه ومَنْ فيه بيد الله تعالى يُصرِّفها كيف يشاء ولا يعجزهُ شيء ... سبحانه وتعالى .

❊ ❊ ❊

المحنة الثانية

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ
وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ ﴾

سورة يوسف:آية ٢٣

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ أي وعندما بلغ يوسف عليه السلام (منتهى قوته وشدته وهو ثلاثون سنة)[1] وهي قمة الشباب، أعطيناه الحكمة والعلم الديني والدنيوي ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

هذه النعم والافضال المتوالية من الله تعالى ليوسف عليه السلام لأنه كان محسناً في أقواله وأفعاله وشأنه كله، والجزاء من جنس العمل كما قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[2] والآية عامة في كل المحسنين فيجازيهم الله تعالى على احسانهم، ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ هذه هي المحنة الثانية التي أُبتليَ بها نبي الله يوسف عليه السلام، وياها من محنة، وياها من فتنة، فقد طلبت منه امرأة العزيز برفق ولين أن يواقعها، وانظر الى قوله تعالى ﴿ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ حيث تستطيع أن تطرده من بيتها ومن النعيم والعز الذي هو فيه فيما لو خالف أمرها ورغبتها ورفض طلبها وتتركه لغربته ووحشته ووحدته، أو تستطيع أن تقنع زوجها ببيعه (لأنه كان رقيقاً)، وقد شددّت من غلق الابواب وتأكدت من ذلك وقالت له : تعال ... هلمَّ ..أسرع الى المتعة واللذة (فقد تهيأت لك: وهو قول ابن عباس)[3] ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ أي أعوذ بالله والتجيء إليه ليعصمني من هذا الفعل القبيح والمنكر الهائل فهو وحده القادر على ان يجنبني مزالق الشيطان ودواعي الهوى .

﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ قيل معناه ان سيدي العزيز هو زوجك فكيف أخونه في أهله بعد أن أكرمني وأحسن مقامي عنده وكيف اقابل الإحسان بالإساءة، وقيل معناه إن الله ربي قد احسن رعايتي وحفظي وكل النعم التي اتمتع بها انما هي من كرمه واحسانه وفضله عليّ فكيف أعصيه

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٤٠.

(٢) سورة الرحمن : آية ٦٠ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٢٧.

بإرتكاب الفاحشة المتناهية في القبح وهو معي أينما أكون يراقبني ويحاسبني على كل عمل اقوم به، وانا أرجح القول الثاني لأن الله تعالى هو المتبادر الى ذهن الأنبياء والصالحين أولاً وقبل كل شيء وهو المطّلع على الخفايا، ومرضاته وعدم عصيانه اهم شيء عند الأنبياء والصالحين، وفي الحالتين فإن يوسف عليه السلام حذّرها وذكّرها بمدى قباحة وشناعة هذا العمل لأن فيه معصية الله تعالى أولاً ثم خيانة الزوج الكريم ثانياً .

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ذكّرها أيضاً أن هذا العمل يُعتبر ظلماً وليس مجرد قضاء شهوة لأنه عصيان لله تعالى أولاً ثم مجازاة الإحسان بالإساءة ثانياً، والظالمون لا يفلحون ابداً في الدنيا أو في الاخرة، ذكّرها وحذّرها ووعظها بكلمات قليلة ولكنها توزن وزن الجبال، ولكن هل نفعت هذه الموعظة الوجيزة البليغة لكبح جماح رغبتها العارمة ؟ كلاّ لأنها سدَّت وغلّقت منافذ النور والحق من الوصول الى عقلها وقلبها قبل ان تغلّق ابواب القصر .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ أي قصدت وأرادت مخالطته قصداً جازماً وإرادة مع عزيمة لا يصرفها عنها صارف . ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ فأمتنع حصول الهمّ من يوسف عليه السلام لوجود البرهان الذي رآه من ربه .

(قال ابو حيّان : نسب بعضُهم ليوسف ما لا يجوز نسبتُه لآحاد الفُسّاق، والذي أختاره أن (يوسف) عليه السلام لم يقع منه هم البتّة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول : (قارفتَ الذنب لولا أن عصمك الله) .

وكقول العرب : (أنت ظالمٌ إن فعلتَ) وتقديره : إن فعلتَ فأنت ظالم وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ولكنه وجد رؤية البرهان فأنتفى الهمّ)[1] والذي يؤيد عدم وقوع الهمّ من يوسف عليه السلام البتّةَ كلامه السابق الذي قال فيه :﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فهل يُعقل بعد هذه الموعظة البليغة والنصيحة الخالصة أن ينسى كلامه ويهم ويفكر بمواقعتها ؟؟ ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ (أي ثبتناه على

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٩٥.

العفة امام دوافع الفتنة والإغراء لنصرف عنه المنكر والفجور، وهذه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية، ولو كان كما زعموا لقال (لنصرفه عن السوء والفحشاء) فلما قال ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾ دل على أن ذلك شيء خارج عن الإرادة فصرفه الله عنه بما منحه من موجبات العفة والعصمة)[1] ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته، وأختارهم للوحي والنبوة فلا يستطيع الشيطان أن يُغويهم ويزلّهم عن طريق الهداية، مع أن الدواعي لإجابة طلب امرأة العزيز كانت في غاية القوة ومن هذه الدواعي والأسباب :

١- أنه كان شاباً وفي قمة وقوة الشباب والشهوة على أشدها .

٢- أنه كان أعزب لا زوجة له ولا سرية تخفف من حدة الشهوة لديه .

٣- أنه كان في غربة ومن الممكن أن يقضي شهوته لبعده عن أهله وأصدقائه مثلما نلاحظ هذه الأيام فإن الكثير من الشباب الذين يسافرون إلى دول الغرب ممن لم يتغلغل الإيمان إلى شغاف قلوبهم فإنهم يُقدمون على عمل الفاحشة لبعدهم عن أهلهم وأقاربهم .

٤- أن المرأة كانت ذات منصب وجمال وأنها هي التي طلبت منه المواقعة وليس هو، لأن بعض الرجال قد لا يطلبون من المرأة ذلك خوفاً من امتناعها وردّها العنيف، أما هنا فالوضع معكوس .

٥- أنه كان مملوكاً لها وعليه أن ينفذ أوامرها لأنها سيدته وهو في دارها وقد تؤذيه وتطرده أو تبيعه إذا لم يطاوعها .

٦- أنه كان لا يخشى أن يعلم أحد من الناس بأمرهما لأنها وحدهما في الدار ومن المستحيل أن تفضح المرأة نفسها وتنشر خبرهما فيعلم زوجها بالأمر .

ولكن مع كل هذه الدواعي والرغبات والأسباب القوية فإن يوسف عليه السلام امتنع وأبى إباءً شديداً وأحسَّ بأن الموقف خطير للغاية ويحتاج إلى حل سريع وحازم (على عكس ما يظنه بعض المغفلين من أنه فرصة لا تعوَّض) فلم يجد حلاً سريعاً للتخلص من هذه الورطة سوى الهرب

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٤٣ .

وبأقصى سرعة ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ فتسابقا نحو الباب هو يريد الهرب والابتعاد عنها وهي تريد الإمساك به وإجباره على مواقعتها وكأن الشيطان يدفعها من ظهرها دفعاً للإمساك به ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ عند محاولتها الإمساك بيوسف جذبت قميصه من الخلف فتمزق فثبت الدليل ضدها، وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ وجدا زوجها عند الباب فجأة ومن غير سابق إنذار، وكأن الله تعالى جازى سيدنا يوسف عليه السلام على سرعة هربه من الفاحشة بسرعة إرسال النجدة للخلاص من هذه الورطة، ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

هنا يظهر جلياً واضحاً للعيان مكر النساء ودهاؤهن وكيدهنَّ فقد قلبت الحقيقة لتبرّيء نفسها وتلقي التهمة على يوسف العفيف النزيه فقالت لزوجها أن من أراد أن يعتدي على أهلك وعرضك فإن جزاءه السجن أو التعذيب، ولكن هل يسكت المسلم على الباطل ولا يدافع عن نفسه وحقه لأنه ضعيف وخصمه صاحب منصب وسلطان؟؟ كلا وألف كلا، خصوصاً وأنه يحمل رسالة ودعوة ويريد من الناس أن تقتدي به وتهتدي بهديه الذي هداه الله إليه فيجب عليه أن يُظهِر الحق ويبين أنه شريف نزيه عفيف أمين ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ نعم فهي كاذبة في إدّعائها ولو كانت زوجة أكبر سلطان في البلد، هنا رأى العزيز أن كلاً من زوجته ويوسف يدّعي البراءة ويلقي بالتهمة على الآخر، وهنا تتدخل القدرة الإلهية لتبرئة يوسف عليه السلام من هذه التهمة الخطيرة ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

وعن الشاهد يقول ابن عباس : (كان طفلاً في المهد أنطقه الله وكان ابن خالها)[1] (وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة)[2] .

هذا الشاهد قال لهم إن كان القميص قد مُزِّقَ من الأمام فمعنى هذا أنه هو الذي أرادها

(١) الطبري ١٢/ ١٩٣ .

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٩٧.

لنفسه فدافعت عن نفسها فشقت قميصه وتكون في هذه الحالة صادقة وهو كاذب، أما إذا كان القميص قد مُزِّقَ من الخلف فمعنى ذلك أنها هي التي حاولت إيقافه وسحبه إليها وهو أراد الهرب منها فتكون في هذه الحالة كاذبة وهو صادق ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ نَظَر زوجها إلى قميص يوسف فرآه قد مُزِّقَ من الخلف فتبين له بما لا يقبل الشك أن زوجته هي التي أرادت خيانته في عُقْر داره، فماذا فعل العزيز بزوجته ؟؟ هل ضربها وكسَّر العصا على رأسها ؟ أم طلقها وأرسلها إلى بيت أهلها ؟ أم حبسها في غرفة من غرف القصر عقوبة لها ؟ لا .. لا .. لم يفعل شيئاً من ذلك، لم يزد على أن قال لزوجته (إن هذا الأمر من جملة مكركنّ واحتيالكنّ أيتها النسوة، فمكركنّ واحتيالكنّ معشر النسوة للتخلص مما دَبَّرتُنَّ شيءٌ عظيم)[1] مما يدل على أنه كان قليل الغَيْرة، وقال بمنتهى البرود واللامبالاة ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ أي يا يوسف لا تحدِّث أحداً بهذا الأمر وأَبْقِهِ سِراً بيننا (وهنا تبدو صورة من (الطبقة الراقية) في المجتمع الجاهلي، رخاوةٌ في مواجهة الفضائح الجنسية، وميل إلى كتمانها عن المجتمع، فيلتفت العزيز إلى يوسف البريء ويأمره بكتم الأمر وعدم إظهاره لأحد، ثم يخاطب زوجه الخائن بأسلوب اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾ أي توبي واطلبي المغفرة من هذا الذنب القبيح، وكأن هذا هو المهم محافظة على الظواهر)[2] ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ أي من المتعمدين للذنب، (كان زوجها ليّن العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه)[3].

ولكن الخبر انتشر في المدينة وتحدثت به النساء ومثل هذه الأخبار تُعتبر عند النساء أحلى من العسل ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أي قالت بعض النسوة أن امرأة العزيز تطلب من خادمها أن يواقعها (وتصريحهن بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع لأن النفوس أمْيَل لسماع أخبار ذوي الجاه، وعبّرن بـ (تراود) للدلالة على أن ذلك صار سجيةً

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٤٣ - ٤٤.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١٢/ ٢٣١.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٧.

لها فهي دائماً تخادعه عن نفسه لأن المضارع يفيد التجدد والاستمرار)[1] ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أي أن حبها له قد بلغ شَغَاف قلبها وهو حجابه ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فهي في خطأ وبُعد عن طريق الحق والصواب، وكأن كلامهن هذا فيه إشارة إلى أنّهن منزّهات عن هذا العمل القبيح ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ عندما سمعت قول النسوة ومحاولتهنَّ فضحها وجعلها حديث الناس أرادت أن تكيد بهنّ وتجعلهنّ يشاركنها في الأمر فلا يجرؤن بعدها على نشر الخبر وإذاعته بين الناس، فبعثت إليهن تدعوهن لحضور وليمة في دارها ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ أي هيأت لهن ما يتكئن عليه من البسط والفرش والوسائد ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وكأن الأمر مقصود لغايةٍ ما في نفسها وليس فقط لتقطيع الطعام وتقشير الفاكهة ﴿ وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ هكذا فجأة وبدون مقدمات قالت ليوسف أخرج على النسوة ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ أي (أعظْمنه وأجلَلْنه وبُهِتْنَ من جماله ودُهِشْن)[2].

﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي جرحن أيديهنّ من شدة الدهشة والإعجاب حتى نَسَيْنَ أنفسهن وما حلّ بأيديهنَ ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ أي تنزه الله عن صفات النقص والعجز فهو قادر على أن يخلق مثل هذا الجمال الباهر ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ فمثل هذا الجمال لا يوجد في البشر فلا بد أن يكون هذا مَلَك من الملائكة، ويدل قولهن هذا على أن يوسف عليه السلام كان واضحاً على شكله وهيئته علامات الصلاح والتقوى والعبادة مثل الملائكة الذين ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾، هنا أدركت امرأة العزيز بأن خطتها الماكرة قد نجحت أيّما نجاح فلابد أن يعذروها على مراودتها ليوسف عن نفسه لأنها رأت ما لا صبر للنساء عليه مثلهنّ تماماً ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ أي هذا هو خادمي وعبدي الذي كنتم تلومونني على محبته ومراودتي إياه عن نفسه ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ أي طلبت منه مواقعتي فامتنع ممانعة شديدة وطلب العصمة من الله (والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٠١.

(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٤٤.

والتحفظ الشديد)[1].

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ فإذا بقي مصراً على مخالفتي وعدم تنفيذه لرغباتي فسأعاقبه بالسجن والإذلال والامتهان (عاودته المراودة بمحضر منهن وهتكت جلباب الحياء وتوعدت بالسجن إن لم يفعل ولم تعد تخشى لوماً ولا مقالاً خلاف أول أمرها إذ كان ذلك سراً بينها وبينه)[2].

وتدل هذه المحاولة الثانية منها على أن زوجها (العزيز) لم يحاول إصلاح الخطأ أول مرة وترك الحبل على غاربه ولم يعاقبها وكان عليه على الأقل أن يُبعِدَ يوسف عنها لذلك فإن زوجته لم تعد تخشى شيئاً فتكررت المحاولة ولكن على نطاق أوسع هذه المرة وبتهديد قوي شديد اللهجة ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ إلتجأ إلى الله تعالى كعادته ليعصمه من إغوائهن وكيدهن وإذا كان السجن فيه البعد عن معصية الله تعالى فهو أفضل من القصر الذي فيه القرب من المعصية. ويدل كلام يوسف عليه السلام بصيغة الجمع ﴿يَدْعُونَنِىٓ ﴾ على أن النسوة قد اشتركن في مراودة يوسف عليه السلام بالتصريح أو بالتلميح لأنفسهن أو لامرأة العزيز وذلك بالطلب منه مطاوعتها فيما رغبت به ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ لجأ يوسف عليه السلام أمام هذه الإغراءات القوية والتهديدات إلى الالتجاء إلى الله ﷻ ليصرف عنه كيدهن ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ استجاب الله ﷻ لدعاء يوسف عليه السلام كما يستجيب سبحانه لدعاء المضطرين الذين يلجأون إلى جناب الله تعالى ليحميهم ويعصمهم من الفتن ويُبعد عنهم وساوس الشيطان ونزغه لأنه تعالى هو السميع لدعاء المضطرين الملتجئين إليه وهو العليم بما يدور ويحصل ويعلم الصادق من الكاذب ويعلم كل شيء في كل زمان ومكان.

(١) الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٦٧ .

(٢) القرطبي ٩/ ١٦٦.

❊ ❊ ❊

المحنة الثالثة

﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

سورة يوسف : آية ٤٢

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ بعدما رأوا العلامات والأدلة القاطعة على براءة يوسف عليه السلام ونزاهته وعفته إرتأوا أن يسجنوا يوسف لمدة من الزمن وهنا تبدأ المحنة الثالثة لنبي الله يوسف عليه السلام وهي محنة السجن في بلاد الغربة حيث لا أهل ولا أنيس ولا صديق ولا قريب يخفف عنه وطأة الوحدة والغربة والظلم الذي وقع عليه ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ ﴾ (أي أُدخِلَ يوسف السجن وأتفق أن أُدخِلَ حينئذٍ آخران من خدم الملك الخاص أحدهما خبازه والآخر ساقيه أُتُهما بأنهما أرادا أن يسمّاه فحبسهما)[1].

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ شاء الله تعالى أن يُريهما في المنام ما سيحصل لهما ولكنّهما لم يفهما هذه الرؤيا ولم يستطيعا تفسيرها فطلبا من يوسف الذي كان معهما في السجن أن يفسر لهما رؤياهما ... ويدل قولهما له ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ يدل على أنهما قد رأوا علامات الصلاح والتقوى على وجه يوسف عليه السلام وتصرفاته وأقواله وهو نفس الوصف الذي وصفه الله تعالى به ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فماذا كان جواب يوسف عليه السلام ؟ أفسَّر لهما الرؤيا وانتهى كل شيء ؟ كلا ... فهو صاحب دعوة ويريد نَشْر دعوته وعقيدته بين الناس... دعوة التوحيد الخالصة ... حتى وإن كان في أحلك الظروف وهو في السجن ... فالدعوة إلى الله تعالى لا يحدُّها زمان ولا مكان وهي تُبذل لكل الناس صغيرهم وكبيرهم ... حرهم وعبدهم... غنيهم وفقيرهم رجالهم ونسائهم، ومن المهم جداً اختيار الأسلوب السهل الواضح المشوِّق الحكيم قال تعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[2].

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٤٥ – ٤٦ .

(٢) سورة النحل : آية ١٢٥.

فبدأ يوسف عليه السلام كلامه بإثارة وتشويق ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ أي أخبركما بما سيأتيكما من طعام يُقدم إليكما، ولكن أيستطيع أحد أن يعلم الغيب ؟ كلا وألف كلا ... فقط الأنبياء والمرسلون الذين يشاء الله ﷻ أن يطلعهم على بعض الأمور الغيبية لحكمةٍ يريدها سبحانه وتعالى وكذلك بعض الصالحين الذين يختصهم الله تعالى بإطلاعهم على بعض الأمور الغيبية متى شاء وكيفما شاء ... وذلك الإخبار بالغيب هو بالتأكيد من المعجزات التي يؤيد بها الله أنبياءه ورسله ليصدّقهم الناس في دعوتهم إلى الحق وهو من الكرامات التي يهبها الله تعالى لبعض الأولياء الصالحين (كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام) لحكمةٍ يريدها الله تعالى ... لذلك أراد يوسف عليه السلام أن ينبّههما إلى هذه المعجزة التي أيّده الله تعالى بها (حيث لا يكون إثبات النبوة إلا باجتماع أمرين :

أولهما : إدّعاء النبوة، وثانيهما : إظهار المعجزة، فكل مَنْ إدّعى النبوة وأظهر المعجزة تصديقاً لدعواه فهو نبي)[1] ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ نعم ذلك الإخبار بالغيب هو من تعليم ربي لي فأنا لست كاهناً ولا ساحراً ولا منجماً ولا هو من تلقاء نفسي ولا ... ولا ... ولكن مَنْ هو ربك يا يوسف الذي علّمك هذا العلم ؟ هل هو الملك ؟ أم هو صنم من الأصنام ؟ أم هو شجر أو حجر أو ... أو ... ؟ لابد أن هذا السؤال قد دار في خَلَد الفتيين فجاءهما الجواب سريعاً ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ إذن فربك هو الله يا يوسف ... وانظر إلى العبارة اللطيفة ﴿ مِلَّةَ قَوْمٍ ﴾ ولم يقل لهما إني تركت ملتكما التي لا تؤمن بالله رباً وإلهاً ولا تؤمن بالآخرة بل أضافها إلى نكرة ﴿ قَوْمٍ ﴾ حتى أنه لم يضفها إلى قومهما ... فلم يقل إني تركت ملة قومكما، وهو أبلغ في التأثير عليهما، فكلمة قوم النكرة هي كلمة عامة شاملة لكل قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر في كل زمان ومكان ولأي سبب كان... لأن الخطاب في بعض الأحيان عندما يكون مباشراً للشخص أو لقومه وعشيرته فقد تأخذه العزة

(١) كتاب (أصول الدين الإسلامي) المقرر للمرحلة الرابعة قسم الشريعة – كلية العلوم الإسلامية – جامعة بغداد ص ٢٣٢ .

بالإثم والحمية والعصبية القبلية فيرفض الدعوة وينفر منها، ولكن على أية ملة أنت يا يوسف إذا لم تكن على ملة هؤلاء القوم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ؟ ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

إذن فملتك يا يوسف هي ملة ودين آبائك وأجدادك الأنبياء الأخيار الأطهار التي هي ملة التوحيد الخالص، وفيه إشارة إلى أنه ليس بِدْعاً من الرسل فدعوته دعوتهم وعقيدته عقيدتهم وطريقه طريقهم، وفيه إشارة أيضاً أو تنبيه للفتيين إلى أنه من بيت وسلالة أنبياء فأبوه نبي وجده نبي وأبو جده نبي فأكرِمْ به من نبي، وقد ذكر لهما ذلك (لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق به)[1] وبينَّ لهما أنه لا ينبغي ولا يصح ولا يستقيم ولا يجوز أن يُشرك بالله من شيء وكلمة ﴿ لَنَآ ﴾ عامة شاملة لجميع الخلق في كل زمان ومكان وليست مقصورة على الأنبياء وأهلهم فقط، وقوله ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ تعني من أي شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً صنماً أو مَلِكاً أو مَلَكاً أو شجراً أو حجراً أو بشراً أو غير ذلك، ثم بيَّن لهما يوسف عليه السلام أن إتّباعهم وثباتهم على ملة التوحيد إنما هو من فضل الله تعالى وحده ولا أحد سواه ... ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله تعالى على هذا الفضل وهذه المنّة والنعمة ... نعمة إرسال الرسل والأنبياء لهداية الناس ونعمة إنزال الكتب السماوية التي هي شرائع وقوانين لصلاح بني البشر في الدنيا والآخرة ... فيشركون به غيره في الدعاء والنذر والذبح والعبادة و ... و ... و ... ثم يخاطبهم يوسف عليه السلام بأرق خطاب ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ﴾ لأنه لم يعرفهما خارج السجن وإنما تعرّف عليهما داخل السجن وذكّرهما بأنهما مشتركان معه في هذه المحنة ولا يعلمون ما هو الحكم الذي سيصدر بحقهم أو إلى متى سيبقون في السجن ... ثم حاول أن يهزّ عقولهما النائمة الغافلة عن الحق لعلها تصحو وتفيق ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ وإسلوب السؤال هنا هو من الأساليب الدعوية الناجحة التي تجعل المدعوّ يفكر فيه ويتأمل ويراجع نفسه ويستعمل

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٤٦ .

عقله النائم الغافل للإجابة عن السؤال (آلهة متعددة لا تنفع ولا تضر ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام خير أم عبادة الواحد الأحد المتفرد بالعظمة والجلال)[1] ولكنه عليه السلام لم يترك الإجابة لهما بل عاجلهما بصفعة قوية واضحة لابدّ منها لإيقاظ العقول والنفوس النائمة اللاهية الغافلة ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ .

وفي هذه المرة خاطبهما خطاباً مباشراً لينبههما إلى فداحة الخطأ الذي هما عليه وكأنه يحمّلهما جزءاً من المسؤولية، فمن الذي بنى الأصنام وأعطاها تسميات مختلفة وإدّعى أن الصنم الفلاني هو إله المطر وذاك إله الحب والجمال وذاك إله الحرب وذاك ... وذاك... قائمة طويلة عريضة من الأسماء والمسمّيات التي ما أنزل الله بها من سلطان، فمن الذي إدّعى كل ذلك ؟؟ إنه الإنسان الضال بالتأكيد الذي استمع لوساوس الشيطان واستجاب له ﴿ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ نعم أنتم وآباؤكم مشتركون في هذا الإدّعاء وهذه الكذبة ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ إذا كانت حجتكم أن عبادتكم لهذه الأصنام هي التي تقربكم إلى الله زلفى (أي أن الغاية الرئيسية هي التقرب إلى الله تعالى عن طريق عبادة هذه الأصنام) فإن الله تعالى ما أمركم بهذا ولا علّمكم هذا ولا أوصاكم به، فليس هناك أي دليل أو حجة أو برهان على أن الله تعالى أنزل في عبادتها شيء وإنما هو محض افتراء على الله ودجل وكذب وإتباع للهوى ووساوس الشيطان اللعين ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ فإن أمر العبادة والدين وأمور الناس الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والعسكرية و... و .... و... إنما هي كلها خاضعة لحكم الله وأمره وإرادته لأنه هو الذي خلق الإنسان وهو الأعلم بما يصلحه في الدنيا والآخرة ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2] .

فليس هناك شيء إسمه حكم الشعب للشعب حسب أهوائه وآرائه، ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أنا لا أكون مسلماً إذا لم أؤمن بأن الحكم يجب أن يكون على وفق ما أنزل الله تعالى وأمر بإتباعه، وعليّ أن أسعى بكل السبل والوسائل لتحقيق هذه الغاية العظمى وحسب ما تقتضيه الظروف التي

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٤٦.

(٢) سورة الملك : آية ١٤.

أعيشها والطاقة أو القدرة والقوة التي أملكها، وعليّ الإقتداء بالأنبياء والمرسلين وأولهم نبينا محمد ﷺ، هذا أمر خطير جداً ينطلي على كثير من المسلمين مع الأسف ويرددون شعارات الغرب ويحاولون تطبيق قوانين وآراء وفلسفات أهل الكفر والضلال ويظنون أنهم بإتباعهم للغرب الكافر الضال سوف يرتقون ويتقدمون وما علموا أنهم يتجهون نحو الهاوية والخسران المبين في الدنيا والآخرة، أنا لا أقبل بالقوانين والدساتير الوضعية البشرية أن تحكمني لأنها صادرة من بشر مثلي يخطأ ويسهو ويمرض ولا يحيط بكل ما ينفعه ويضره فما يعتقده اليوم حقيقة إذا هو في الغد يصبح وهماً وما يظنه اليوم صحيحاً إذا هو في الغد يصبح خطأً وهذا هو حال المخلوق الضعيف، ولكنني أرضى ويجب عليّ أن أرضى بحكم الإله الواحد الأحد الذي خلق البشر وخلق كل شيء لأن علمه قد أحاط بكل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل وهو الأعلم بما ينفعني ويصلحني في الدنيا والآخرة وهو تعالى المنزّه عن صفات النقص والعيب والظلم فلماذا أترك شرعه ومنهجه الواضح المستقيم السهل وألتزم شرع وقوانين بشر مثلي ينامون ويمرضون وينسون ويخطأون ويغضبون ويكرهون في حق وفي باطل، لو كان في القوانين الوضعية خير لَما وَجدْتَ التفاوت الكبير في دول الغرب بين أناس بمنتهى الثراء وآخرين ينامون في الشوارع تحت الصقيع ويبحثون في القمامة عن لقمة العيش ناهيك عن معدلات الطلاق والسفاح وأولاد الحرام والقتل والانتحار والأمراض المعدية الفتاكة والأورام الخبيثة التي تفتك بمجتمعات الغرب بنسب مرتفعة، نعم ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3] فالله تعالى لم ينزِّل القرآن الكريم لكي يُقرأ في المآتم على أرواح الموتى أو لأضعه على رفوف المكتبات والمحلات التجارية للبركة والرزق فقط دون أن أقرأه

(١) سورة المائدة : آية ٤٤.

(٢) سورة المائدة : آية ٤٥.

(٣) سورة المائدة : آية ٤٧.

وأتدبره وأتأمل وأتعلّم ما فيه ودون أن أعمل بمقتضاه، كلا .. فالله تعالى أنزله لكي يكون لنا منهاجاً ودستوراً عملياً نسير على هديه في كل أمور الحياة بدءاً من علاقة الإنسان بربه ثم علاقته بأخيه الإنسان وانتهاءاً بعلاقات الحكومات والدول بعضها ببعض وعلاقتها بربها وخالقها، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[1].

آيات واضحة وصريحة لا لبس فيها ولا غموض تقرر أن الحاكمية المطلقة لله رب العالمين وليس لأي أحد سواه، فما معنى كوني مسلماً إذا لم أعتقد بهذا الأمر ولم أُذْعِن وأخضع وأنقاد لحكم الله فهي من ضمن معاني (أشهد أن لا إله إلا الله) فقولها باللسان فقط دون أن أُقِرّ وأعترف بها وأسعى لتطبيقها لا يعني شيئاً، للأسف الشديد فإن كثيراً من المسلمين لا يفهمون هذا الأمر وينقادون وراء كل ناهقٍ وناعق ممن يريدون فصل الدين عن الدولة أو يريدون السير وراء القوانين والتشريعات البشرية الناقصة وترك التشريع الإلهي الرباني الكامل الشافي الوافي الذي فيه حياة وسعادة البشر ... كل البشر في الدنيا والآخرة .

﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ أي أمر سبحانه بإفراد العبادة له وحده لأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وعبادة غير الله لا تعني بالضرورة الدعاء والتضرع والتوسل والذبح والنذر فقط وإنما عبادة غير الله تأخذ أشكالاً عِدّة من ضمنها دعوة حكم البشر للبشر بالقوانين والتشريعات البشرية وترك التشريعات الإلهية، أو الانقياد والخضوع المطلق لحاكم ظالم أو كافر وطاعته

(١) سورة المائدة : الآيات ٤٨-٤٩- ٥٠.

فيما يأمر به الناس من معصية الله عز وجل، وغير ذلك ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي هذا الذي دعوتكم إلى الإيمان به هو الدين القويم المستقيم دين التوحيد الخالص ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (أي يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع ... فتدرج عليه السلام في دعوتهم وألزمهم الحجة ... ثم شرع في تفسير رؤياهما)[1] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما قاله يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن ينطبق تماماً على مشركي قريش وأن دعوة يوسف عليه السلام ودعوة نبينا محمد ﷺ ودعوة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام إنما هي دعوة واحدة وأن ما كان من أمر المشركين والكفار في زمن يوسف مشابه لما عليه الحال في زمن النبي محمد ﷺ فكأنها دعوة لكفار قريش لترك عبادة الأصنام وعبادة الواحد الأحد ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ بكلمات معدودة لا تتجاوزعدد أصابع اليدين أجاب يوسف عليه السلام عن سؤال الفتيين حول رؤياهما وذلك بتعليم الله ﷻ له ذلك أما الدعوة إلى الله التي ابتدأ بها كلامه معهما فقد فصّلها تفصيلاً وأطال الكلام عنها لأنها هي المهمة وعليها يعتمد مصيرهما الأبدي في الآخرة، فأخبرهما بأن أحدهما سوف يرجع إلى نفس عمله السابق مع الملك وأما الآخر فيُقتل ويُعلَّق على خشبة فتأكل الطير من رأسه وهذا الأمر هو من قضاء الله تعالى وهو واقع لا محالة .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ وهو الساقي ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي إذكر أمري وما حصل لي من الظلم عند سيّدك الملك ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ أي أن الشيطان أنسى الساقي أن يذكر أمر يوسف عند الملك ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (ولأهل اللغة أقوال في البضع : ما بين الثلاث إلى التسع، أو إلى الخمس، أو ما لم يبلغ العقد ولا نصفه، يعني ما بين الواحد إلى الأربعة وقيل غير ذلك)[2] .

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٤٦-٤٧.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ١٨٠.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ رأى الملك في منامه رؤيا عجيبة أفزعته فجمع حاشيته وكبار قومه وسألهم عن تفسير هذه الرؤيا العجيبة (قال ملك مصر إني رأيت في منامي سبع بقرات سمانٍ خرجت من نهر يابس وفي أثرهن سبع بقرات هزيلة في غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان ... ورأيتُ أيضاً سبع سنبلات خضر قد انعقد حبُّها وسبعاً أُخر يابسات قد استحصدت فالْتَوَتْ اليابسات على الخضر فأكلنهنّ)[1] ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ أي قالوا للملك إنّ هذه ليست رؤيا حق وإنما تخاليط المنامات وأباطيلها ولا نعرف تفسير مثل هذه الأحلام ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وهو الساقي الذي نجا من العقوبة وأُفرج عنه ورجع إلى عمله كما أنبأه يوسف عليه السلام وتذكر بعد فترة من الزمن ليست بالقصيرة ما كان بينه وبين يوسف وما أوصاه به ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أي أنا استطيع أن آتيكم بتفسير لهذه الرؤيا ممن عنده علم بتفسير المنامات فأرسلوني إليه ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ (وسماه صدّيقاً لأنه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن، والصدّيق مبالغةٌ من الصدق)[2] .

وطلب منه تفسير هذه الرؤيا ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فأُخبرهم بتفسير هذه الرؤيا العجيبة، فماذا قال يوسف عليه السلام ؟؟ لو أن أي إنسان (ما عدا الأنبياء) كان في مكان يوسف عليه السلام وفي مثل حاله ومحنته من الوحدة في السجن والغربة عن الأهل والوطن والأصدقاء والوحشة والظلم الذي حلَّ به فماذا تظنه سيقول ؟؟ بالتأكيد سيقول لن أجيبكم عن سؤالكم حتى تخرجوني من السجن !! خصوصاً وأنه يعلم وهم يعلمون أيضاً أن الجواب عنده وحده وأنه لم يقترف ذنباً يستحق دخول السجن بسببه، ولكن لأنه نبي والأنبياء مهمتهم الرئيسية

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٥٠.

(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٥٠.

دعوة الناس وإصلاح أمور الناس وتقديم النصح والإرشاد لهم دون مقابل حتى ولو كان ذلك على حساب راحته وصحته وسعادته فقد أجابهم إجابة شافية كافية وافية... وزيادة !!

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أي قال يوسف عليه السلام تزرعون لمدة سبع سنين بجد ونشاط ومثابرة وعزيمة والذي تحصدونه من الزرع اتركوه في سنبله إلا قليلاً مما تحتاجون إليه للأكل فنبههم إلى ضرورة الاقتصاد في الأكل ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي تأتي بعد هذه السنين السبع التي زرعتم وحصدتم فيهن سبع سنين ذات شدة وقحط وجفاف فتضطرون للأكل من الخزين الذي تركتموه في سنبله وكأن كل سنة جفاف وقحط تأكل خزين سنة من الزرع والحصاد إلا القليل المخزون للزراعة ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ هذه هي الزيادة التي أخبرهم بها يوسف عليه السلام لأن الملك لم ير في منامه أو في رؤياه هذا العام الذي فيه الرخاء والمطر وكثرة الزروع والثمار بحيث يعصر الناس فيه الأعناب والفواكه دلالة على وفرة الإنتاج والخصب، وإنما أخبرهم يوسف عليه السلام عن هذا العام من جهة الوحي من رب العالمين وكذلك باقي تفسير الرؤيا، وفي تطابق ما ذكر لهم يوسف عليه السلام مع حقيقة الواقع الذي حصل دليل قاطع على صدقه وعلى أنه نبي يوحى إليه من رب العالمين ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ﴾ رجع الساقي إلى الملك وأخبره بتفسير يوسف عليه السلام للرؤيا فلما سمع الملك هذا التفسير المنطقي والمعقول والحكيم لرؤياه أراد أن يرى هذا الشخص والتكلم معه مباشرة وربما الاستزادة منه عن تفسير الرؤيا ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي جاء رسول الملك إلى يوسف وهو في السجن ليخبره بأن الملك يريد أن يراه ويتكلم معه بنفسه ... يا له من فخر ... يا له من عز ... يا لها من فرحة ... الملك بنفسه يريد أن يكلمه ويستمع إليه... هل هذا كان شعور يوسف عليه السلام؟؟ ((قال .....)) ماذا قال يوسف عليه السلام ؟؟ هل قال الحمد لله أخيراً جاء الفرج وخرج بسرعة ؟؟ لو أن أي إنسان (ما عدا الأنبياء) كان في مكان يوسف عليه السلام لقفزمن مكانه وقبّل رأس هذا الرسول من عند الملك على هذه البشارة وخرج مادّاً رأسه قبل رجله كما يُقال ! ! ولكن يوسف

عليه السلام رفض الخروج من السجن ! ! !

سنين طويلة في السجن وهو غريب في أرض مصر ليس له أهل ولا أقارب وربما أيضاً ولا حتى أصدقاء يزورونه في السجن ويخففون عنه ما هو فيه من الوحدة والوحشة والغربة والظلم الذي وقع عليه والعزيز وأهله يعلمون يقيناً أنه بريء ولكنهم أرادوا حماية امرأة العزيز من العار ومن ألسن الناس فألقوا بالتهمة على يوسف وسجنوه وأُشيع بين الناس أن يوسف هو المذنب ولذلك سُجن ... ولكن يوسف رفض الخروج من السجن!! ولكن ماذا .. ماذا عليه لو أنه خرج من السجن وأثبت للملك أنه بريء؟؟

هذا لا يكفي... يجب أن يعلم الناس .. كل الناس أنه بريء.. لأنه صاحب دعوة... صاحب رسالة .. فكيف يدعو الناس إلى عبادة الله وعمل الصالحات وترك المنكرات وهم يَشُكُّون في عفّته ونزاهته وصدقه؟؟ يجب أن تعلم الدنيا ... كل الدنيا أنه بريء، عفيف، نزيه، صادق، أمين ... وهذا هو الذي حصل بالضبط ﴿ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾، أي قال لرسول الملك إرجع إلى سيدك الملك فاسأله عن النسوة اللاتي جرحن أيديهن (ما شأنهن وخبرهن، أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك ولم يكشف له عن القصة ولا أوضحها له لأن السؤال مجملاً مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام فتحصل البراءة)[1] ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ إن ربي الله تعالى هو الذي يعلم بما دبّرنه من كيدٍ لي وسيجازيهم على ذلك .

وفيه من الوعيد ما لا يخفى . جلس الملك .. وجلس حوله وزراؤه ومستشاروه وهم يتوقعون دخول يوسف عليهم في أية لحظة ليرمي بنفسه على الأرض ويقبّل الأرض بين يدي الملك ويكيل له من أصناف المديح والشكر والثناء على إخراجه من السجن وأنه طَوْع أمره .. وأنه... وأنه .. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ! ! ! دَخَل رسول الملك وحده ليخبر الملك بأن يوسف ... رفض الخروج من السجن ! ! ولكن ... ولكن هذا مستحيل... لماذا رفض الخروج من السجن

(١) محاسن التأويل ٦/ ١٨٤ .

؟؟ لقد لبث في السجن سنين طوالاً .. لا يوم ولا يومين... ولا شهر ولا شهرين ... ولا سنة ولا سنتين ... إنها سنين طوال ... وعندما تأتيه الفرصة الذهبية للخروج من السجن يرفض الخروج ! ! لابد إذن من أن هنالك أمراً عظيماً وشأناً خطيراً جعله يرفض الخروج من الحزن والهمّ والضيق والوحدة والظلم في السجن ... ولكن ما هذا الأمر الخطير ؟؟ أجب بسرعة ماذا قال لك ؟ ولماذا رفض الخروج من السجن ؟ لقد طلب مني يا مولاي أن أسألك ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن ؟؟ وقال يا مولاي والحزن بادٍ على وجهه : ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ .

النسوة اللاّتي قطّعن أيديهنّ ؟؟ أية نسوة ؟؟ ولماذا يقطّعن أيديهنّ ؟؟

وبالتأكيد فإن من سمع بالخبر وعرف القصة رواها للملك وأخبره عنها فأمر الملك بإحضار جميع النسوة اللائي حضرن الوليمة في بيت العزيز في حينها ومن ضمنهن امرأة العزيز ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ فهو بالتأكيد شأنٌ خطير وأمرٌ جَلَل أن تراود المرأة الحرة خصوصاً إذا كانت ذات منصب أو زوجة رجل مهم في الدولة تراود شاب عن نفسه .. ومن يكون ؟ خادمها ؟

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله : (ومن هذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت العزيز، وما قالته النسوة ليوسف وما أشرن إليه من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة، ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ، فالجاهلية دائماً هي الجاهلية، إنه حيثما كان الترف وكانت القصور والحاشية، كان التحلل والتميّع، والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية!!)[1] .

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ (أي معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء، وهو تنزيهٌ له وتعجب من نزاهته وعفته)[2]، هنا أُسقِطَ في يد امرأة العزيز ورأت أنه لابد من الاعتراف قبل أن يشهد عليها النسوة ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

(١) في ظلال القرآن ١٢/ ٢٤٨.

(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٥١ .

﴿ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي قالت الآن ظهر الحق وبان .. فأنا التي دعوته إلى نفسي وإنه صادق عندما قال ﴿ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ . ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ .

يقول القاسمي في تفسير هذه الايات : (تقول امرأة العزيز : ذلك الذي اعترفت به على نفسي ليعلم يوسف أني لم اكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه أو ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الامر ولا وقع المحذور الاكبر وانما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع فاعترفت ليعلم أني بريئة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ أي لايرضاه ولا يسدده ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تريد: وما ابرئ نفسي مع ذلك فإن النفس تتحدث وتتمنى ولهذا راودته ... تريد الاعتذار مما كان منها أن كل نفس لامارة بالسوء إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف)[1] ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ .

فمثل هذه الأخلاق العالية والعفة والنزاهة والصدق يجب أن تُستثمر ويُستفاد منها في أمور الحكم لأن الشخص الذي يتصف بمثل هذه الصفات يعتبر عملة نادرة وجوهرة ثمينة ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ وبالتأكيد فإن الملك بعد أن كلّم يوسف عليه السلام وعرف عفته ونزاهته وأمانته وعلمه قرّبه إليه وجعله مؤتمناً عنده على أمور الدولة .

ولابد من الإشارة هنا إلى أمرٍ مهم جداً، وهو أننا نعرف أن ملوك مصر القديمة يُلَقَّبون بالفراعنة، حتى في القرآن الكريم أينما وُجِدَ ذِكْر لحكام مصر فيكون بلقب فرعون إلا في سورة يوسف فلم يذكر تعالى لقب فرعون وإنما لقبه دائما بالملك!! وهنا يظهر الإعجاز القرآني لأن العلماء يقولون بأنّ حاكم مصر إذا كان من نفس أهل البلد فيلقَّب بفرعون أما إذا كان ليس من أهل البلد فيلقّب بالملك!! وفي زمن يوسف عليه السلام كان الهكسوس قد احتلوا مصر وحكموها... لذلك جاء لقب الملك في سورة يوسف وليس فرعون ... جاء في كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف للشيخ عبد الله العَلَمي الدمشقي ما يلي : (والسبب في سجن الفتيين، الساقي والخباز، هو أنه

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ١٨٦.

يظن أن زمن الملك (الريان) الذي هو من الهكسوس كان زمن اضطراب وضعف في السلالة الخامسة عشرة، ويظن أن الملك (الريان) كان هو الأخير أو قبل الأخير منها، وأنه كان حصل تواطؤ بين بعض أشراف مصر الوطنيين وبين هذين الفتيين لأجل نقل المُلْك من الغرباء إلى الوطنيين، أو أن التواطؤ كان حصل بين السلالة السادسة عشرة من الهكسوس وبين هذين الفتيين لأجل نقل المُلْك من فخذ إلى آخر أي من السلالة الخامسة عشرة إلى السلالة السادسة عشرة)[1] فمن أين لمحمد ﷺ أن يعرف ذلك فيفرق بين لقب ملك وفرعون لولا وحي الله تعالى له وأن ليس عليه ﷺ سوى التبليغ ؟ قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[2] .

❊ ❊ ❊

(١) من كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف للشيخ عبد الله العلمي الدمشقي ج١ ص٦٩٢.

(٢) سورة النجم :اية ٤ .

الفرج بعد الشدّة
واليُسْر بعد العُسر

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

سورة يوسف: آية ٥٦

﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يوليه مسؤولية أخطر وأهم وزارة ... ألا وهي وزارة المالية !! ولكن لماذا طلبها يوسف عليه السلام؟؟ أما كان من الأسهل له أن يبقى إلى جانب الملك يستشيره في بعض الأمور ولا يأخذ من وقته إلا القليل ويقضي بقية أوقاته في العبادة والدعاء والتأمل والدعوة إلى الله سراً ؟ كثيرٌ جداً من المسلمين اليوم يفكرون مثل هذا التفكير ... ولهذا وصل حالنا اليوم إلى ما وصل إليه من التأخر والذلة والهوان والاحتلال وسيطر أعداؤنا على مقاليد الأمور وأخذوا بزمام المبادرة في جميع العلوم وركبوا صهوة العلم... فهم الذين يفصّلون ونحن نلبس وهم الذين ينتجون مختلف البضائع ونحن نستهلك هذه المنتجات ونشتريها منهم وهم الذين يخططون ونحن ننفذ سواءاً بإرادتنا أم بغير إرادتنا بعلمنا أم بجهلنا، يضعون الخطط التي يكون تنفيذها أو قطف ثمار ونتائج هذه الخطط لصالحهم بعد عشرات السنين ونحن نائمون، غافلون، ساهون، نهتم بأمر آخرتنا ونترك دنيانا لأعدائنا ليسيطروا بها علينا وعلى عقولنا وشبابنا ونسائنا واقتصادنا و ...و ... و... فنحن نستعمل ونستخدم السيارات التي يصنعونها وكذلك المكائن والمعدات والأجهزة بل وحتى الأسلحة التي تنتج في مصانعهم نشتريها منهم ثم بعد ذلك نريد أن ننتصر عليهم ؟ ما انتصر المسلمون الأوائل على أعدائهم وما ملكوا الدنيا إلا بعد أن إسْتَغْنَوْا بكل شيء عن غيرهم (سوى الله تعالى) ولم يتركوا أعداءهم ينفردون بعلم أو صناعة .

كانوا يبذلون الغالي والنفيس من أجل طلب العلم سواءاً كان علماً دينياً أم دنيوياً ما دامت النية هي مرضاة الله ﷻ ورفعة الإسلام والمسلمين وعزّهم، الله ﷻ ما قصَّ علينا قصص الأنبياء والمرسلين إلا للعبرة والاتعاظ والذكرى والإقتداء بهم، يوسف عليه السلام تقدم بالطلب من الملك أن يجعله وزيراً للمالية لأنه أَوْلى من غيره بهذا المنصب ولأنه يستطيع من خلاله أن يقيم العدل والحق وأن يدعوَ الناس إلى الله قولاً وعملاً لأن تأثير العمل قد يكون أقوى من تأثير القول وحده فسلوك المسلم الداعية وأخلاقه وصدقه وأمانته ونزاهته تؤثر في الناس وتدفعهم إلى

الوثوق به والتعامل معه وربما الإقتداء به، ما وصل الإسلام وانتشر في ماليزيا واندونيسيا واليابان وغيرها من الدول إلا عن طريق التجار المسلمين الصادقين المؤمنين الملتزمين، أما ما يفعله بعض المسلمين اليوم من تجنب المناصب المهمة والقيادية والابتعاد عنها فهو خطأ كبير .. لأن ذلك يؤدي إلى تولي غير المسلمين أو المسلمين غير الملتزمين لهذه المناصب المهمة فيتحكمون بمصير الملايين من المسلمين ويضرّون أكثر مما ينفعون، إذا لم ينتبه المسلمون ويَسعَوْن إلى تولي المناصب القيادية في المجتمع لا من أجل المال والكرسي ولكن من أجل إقامة شرع الله في الأرض أقول إذا لم يفعل المسلمون ذلك فإنهم في خطر كبير ... خطر دنيوي وأخروي . وهذا الكلام ينطبق على المسلمين في جميع الدول الإسلامية لأنها إن لم تكن مُحتلة من قبل الأعداء بصورة مباشرة مثل العراق وفلسطين وأفغانستان فإنها محتلة بصورة غير مباشرة عن طريق ولاء حكامها ورؤسائها لأساطين الكفر والضلال أعداء الإسلام والمسلمين ..... الاحتلال لا يكون عسكرياً فقط ... وليس من الشرط أن تمشي الدبابات والمدرعات في الشوارع وتطير الطائرات الحربية في الجو ليقال أن هذا البلد محتل ... لا ... لا ... لا ... الاحتلال يأخذ صوراً وأشكالاً متعددة منها مثلاً نبذ تعاليم الإسلام وشريعته الغراء والتمسك بتعاليم وعادات وقوانين الغرب الكافر أو الشرق الملحد، ومنها أيضاً طاعة حكام العرب والمسلمين المطلقة لأوامر قادة ورؤساء الكفر والضلال .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وافق الملك على طلب يوسف عليه السلام وجعله مسؤولاً عن خزائن الأرض وغِلاّتها فانتقل بذلك من الحبس والضيق إلى العز والسلطان ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ فيتنقل في الأرض (أرض مصر) حيث يشاء ويأمر فيطاع ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تكرر وصفه بأنه من المحسنين للمرة الثالثة فالجزاء من جنس العمل فمن أحسن ما بينه وبين ربه أحسن الله ما بينه وبين الناس ومَنْ أحسن إلى الناس أحسن الله إليه ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (وفيه إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو

ثواب الآخرة وأن ما يُدّخر لهؤلاء المحسنين أعظم وأجل من هذا النعيم الزائل في الدنيا)[1].

وهكذا فقد استجاب الملك لتفسير الرؤيا التي فسّرها له يوسف عليه السلام فأمر ببذل كل الجهد والطاقة الممكنة لزراعة الأرض وتَرْك المحصود في سنبله إلا قليلاً مما يأكلون وذلك إستعداداً للسنين السبع العجاف فامتلأت مخازن مصر بالمحاصيل الزراعية وقام يوسف عليه السلام بواجبه خير قيام ولم يألُ جهداً في حث الناس على الزراعة وجلب المحاصيل إلى المخازن ليتولى بنفسه الإشراف على دخول وخروج الغلّة لكي لا يحصل أي غش أو تلاعب أو تهاون .

وهذا هو واجب المسلم الصادق مع ربه ومع الناس في كل زمان وفي كل مكان وفي كل الأمور والأعمال التي يقوم بها حيث يقول نبينا الأكرم محمد ﷺ (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) نعم ... عملاً بالنكرة يعني أي عمل صغيراً كان أم كبيراً سهلاً أم شاقاً وسواءاً كان عملاً يتعلق بأمور الدنيا أم بأمور الآخرة ... وهل العبادات التي نقوم بها من صلاة وصيام وحج وزكاة وغيرها من العبادات إلا أعمال نقوم بها لله رب العالمين ؟ وللأسف الشديد فإن دول الغرب الكافر والشرق الملحد قد عمل بهذه النصيحة النبوية العظيمة عن غير قصد منهم ولا علم لهم بهذا الحديث النبوي الشريف ولا طلباً لمرضاة الله تعالى وإنما هو سبب من الأسباب الكونية التي وضعها الله تعالى فمن أخذ بها وطبقها ارتقى في دنياه حتى وإن كان غير مؤمن ومن أخذ بها وطبقها وهو مؤمن مع النية الصالحة ارتقى في دنياه وآخرته لذلك وصلوا إلى ما وصلوا إليه اليوم من التقدم والرقي وسيطروا على الأسواق العالمية والتجارة العالمية ومِنْ ثَمَّ سيطروا على بلاد المسلمين بسبب إتقانهم لعملهم وعدم إضاعتهم لأي دقيقة من الوقت عند العمل خلافاً لما عليه الحال في بلاد المسلمين التي ترى فيها الموظف يتفنن في إضاعة الوقت وتأجيل الواجبات المكلف بها أو تحويلها إلى غيره إلاّ من رحم ربي ممن يخاف الله تعالى ويقدّر المسؤولية والأمانة الملقاة على عاتقه وقليلٌ ما هم ولذلك وصل حالنا اليوم إلى ما وصل اليه من التخلف والضعف وعدم استطاعتنا الإستغناء عن منتجات الغرب الفاخرة في قوتها ومتانتها

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٥٢ .

وجودتها.

وانقضت السنين السبع ...

وانقطع المطر ! ! !

واستمر إنقطاعه .....

وبدأت الأرض تجف ..... وتجف ..... وتجف

ليس في مصر وحدها ولكن في البلدان المجاورة لها أيضاً .....

وبدأ خزين الناس من القوت يقل شيئاً فشيئاً ..... رويداً رويدا .....

وبدأ الجهد والتعب والجوع يظهر على وجوه الناس والحيوانات على حدٍّ سواء

ونفد خزين الناس من الطعام ! ! !

فهم لم يكونوا يتوقعون حدوث مثل هذا الجفاف وانقطاع المطر كل هذه السنين الطوال .

ولكن أين المفرّ ؟؟

من أين يأتون بالطعام ؟؟

هل يستسلمون للقحط والجوع وتموت دوابّهم ثم يموتون هم أيضاً ؟؟

ماذا يفعلون ؟؟

بدأوا يسألون: هل هذا الجفاف والقحط والجوع أصابهم وحدهم أم أصاب أناساً آخرين في البلدان المجاورة ؟؟

سمع الناس وتناقلت الأخبار بأن هناك بصيصاً من الأمل ! !

ولكن أين ؟؟ فجاءهم الجواب بأن في أرض مصر تتم مقايضة البضاعة ... أي بضاعة بمحاصيل الزراعة ! !

فمصر وحدها كانت تعلم بما سيحدث من جفاف بسبب ما أخبرهم به يوسف عليه السلام بوحي من الله تعالى فاستعدت لذلك خِلافاً لبقية البلدان المجاورة .

وبدأ الناس يشدّون الرحال إلى مصر للمقايضة ..... فيعطونهم ما يتوافر لديهم من بضاعة

وصناعة وربما أثاث البيت مقابل الطعام ... وإذا وصل الجوع حد الموت هان في سبيل الحنطة الذهب والفضة ! ! وأصاب الجفاف والجهد والجوع فيمن أصاب بلاد الشام وفلسطين موطن سيدنا يعقوب عليه السلام وأهله فأرسل أبناءه إلى مصر للميرة ولجلب الطعام وأبقى الصغير بنيامين شقيق يوسف عنده.

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ .

(قال ابن عباس : كان بين إلقائه في الجب وبين دخولهم عليه اثنتان وعشرون سنة فلذا أنكروه)[1]،

ولكن .. ماذا قال يوسف عليه السلام في نفسه ؟؟

هل قال نعم الآن حان وقت الحساب والقصاص ؟؟

أم قال في نفسه الآن أُريهم كيف يكون الظلم والعذاب والهوان والسجن ؟؟

الآن أفعل بهم الأفاعيل وأجعل حراسي وخدمي يرجمونهم بالحجارة أو يرمونهم في بئر عميق مظلم كما فعلوا بي ؟؟

لا ..... لا ..... لا

لاشيء من هذا القبيل دار في خَلَد يوسف عليه السلام

لأنه نبي بن نبي بن نبي بن نبي .....

إنهم لا يقابلون الإساءة بالإساءة كما يفعل بقية الناس ...

إنهم ما بُعثوا إلا لهداية الناس والرحمة والشفقة بهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور ومن النار والجحيم إلى الجنة والنعيم ... ماذا قال نبينا محمد ﷺ حين آذَتْه ثقيف في الطائف وأدْمَتْه وكذلك ما فعلته به قريش ؟؟

ماذا قال عندما بعث الله تعالى له جبريل عليه السلام مع مَلَك الجبال ليأمره ﷺ بما شاء مِن إطباق الجبلين عليهم وإفنائهم جميعاً ؟؟

هل قال أريدك أن تُطْبِقَ عليهم الجبلين وتخلصنا منهم ومن شرورهم وعنادهم وكفرهم ؟؟

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٥٢ من حاشية الصاوي ٢/ ٢٤٩ .

لا ..... لا ..... لا

لاشيء من هذا القبيل دار في خَلَد نبينا محمد ﷺ

فهو الرحمة المهداة

قال : (بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله ولا يشرك به شيئاً)

نعم مِنْ أصلابهم ..... فإذا لم يؤمنوا هم فأرجو أن يؤمن أبناؤهم ! !

كان ﷺ ينظر إلى البعيد ..... إلى المستقبل

وقد تحقق ما كان يرجوه نبينا محمد ﷺ واستجاب الله دعاءه ...

مَنْ هو خالد بن الوليد ؟؟ سيف الله المسلول، الذي لم يخسر اي معركة قادها في حياته .....

أليس هو ابن الوليد بن المغيرة ؟ الذي نزل في ذمه وتوعده بالنار آيات من القرآن الكريم ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾[1] .

ومَن هو عكرمة بن أبي جهل ؟؟ الذي قاد معارك الفتح الإسلامي المبارك .. أليس هو ابن أعتى وأطغى مشركي قريش وكفارهم ؟؟ والقائمة تطول ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ نفهم من سياق الآية أنه كلمهم وتحدث إليهم كالمستفهم عن سبب مجيئهم إلى مصر فأخبروه بأنهم جاءوا ليشتروا الطعام ومن ضمن الأمور التي ذكروها له أن لهم أخاً من أبيهم وليس من أمهم، وبالتأكيد فإن يوسف عليه السلام قد إشتاق كثيراً بعد مرور هذه السنوات الطوال إلى رؤية أبيه وأمه وأخيه الأصغر بنيامين ولكن كيف السبيل إلى رؤيتهم ؟ فطلب منهم أن يأتوه في المرة القادمة بأخيهم الصغير ليتحقق من صدق كلامهم خصوصاً وأنه قد أكرمهم وأحسن ضيافتهم وأعطاهم ما يحتاجونه من غير نقص ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ لأن معنى ذلك أنكم كاذبون في كلامكم وليس لكم أخ أصغر فلا تستحقون الإكرام والميرة .

(١) سورة المدثر : الآيات ١١-١٧.

(والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام كان بوحي من الله تعالى وإلا فمقتضى البرّ أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكنَّ الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته ولتتفسّر الرؤيا الأولى)[1] ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ (أي سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده ونجتهد في ذلك، وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله)[2] ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ طلب من غلمانه وخدمه أن يعيدوا البضاعة التي جاء بها إخوته للمقايضة في أوعيتهم بدون أن يشعروا!! ولكن لماذا ؟؟ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي لعلهم عند رجوعهم لديارهم وفتحهم لأوعيتهم يجدون بضاعتهم التي أرادوا مقايضتها بالطعام موجودة في أوعيتهم فيضطرون للرجوع إلى مصر لرد البضاعة إلى يوسف لأنهم قد أخذوا بديلها من الطعام وما يحتاجون إليه (فإنه علم أن دينهم يحملهم على رد الثمن)[3]. ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ أي قالوا لأبيهم إن عزيز مصر والمسؤول عن الميرة رفض أن نعود إليه مرة أخرى من دون أن نأخذ معنا أخانا بنيامين ليتأكد من صدق كلامنا معه وسوف نعتني به ونحافظ عليه ... ويبدو أنهم صادقون في كلامهم هذه المرة وأن حسدهم وغيظهم كان من يوسف فقط والله أعلم .

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ ألم تقولوا لي في يوسف ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فماذا كانت النتيجة؟؟ ألم تقولوا لي ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ فكيف آمن على أخيه بنيامين منكم ؟؟ ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فالله تعالى هو الذي يحفظ أبنائي خيرٌ من حفظكم وهو الأرحم بعباده ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي وجدوا بضاعتهم التي كان من المفروض أن تكون عند عزيز مصر موجودة في أوعيتهم ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أي

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٥٣ من البحر المحيط ٥/ ٣٢٢.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ١٩٤.

(٣) صفوة التفاسير ٢/ ٥٣ .

قالوا لأبيهم ماذا نطلب من الكرم وحسن الضيافة في مصر أكثر من هذا بحيث وضعوا بضاعتنا التي قايضنا بها على الطعام في أمتعتنا بدون أن نشعر فاسمح لنا بالذهاب مرة أخرى إلى مصر مع أخينا الصغير بنيامين لجلب الميرة والطعام ونزداد حِمْل بعير بسببه ونحن نحفظه ونرعاه ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ فلن أرسل معكم بنيامين إلا بعد أن تعطوني عهداً مؤكداً وتُقْسمون بالله أن تُرجعوه لي ﴿ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي إلا أن يصيبكم أمر خارج عن إرادتكم فلا تقدرون على دفعه ورده فأعذركم في هذه الحالة .

﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أي فلما أعطوه من الأَيْمان المؤكدة وحلفوا بالله قال: الله على ما نقول شهيد ورقيب ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ (خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين إذ كانوا أهل جمالٍ وهيبة)[1] ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً فلا تنفع وصية ولا تحذير ولا تدبير ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ فالأمور كلها بيد الله ﷻ يصرّفها كيف يشاء ونحن ما علينا سوى الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، لذلك قال بعدها ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ فيجب عليَّ أن لا أترك الأخذ بالأسباب والتدبير والتخطيط المسبق والحيطة والحذر بحجة القضاء والقدر وأن الأمور مُقدرة سَلَفاً ومكتوبة في اللوح المحفوظ وإنما يجب عليَّ أن أبذل قصارى جهدي وآخذ بالأسباب الشرعية وأحتاط وأحذر وأتوكل على الله ﷻ وأتضرع إليه بالدعاء والتوسل ليَقضي حاجتي ويصرف عني السوء وقدوتنا في ذلك نبينا محمد ﷺ حتى أنه عندما هاجرمن مكة إلى المدينة استعمل (عبد الله بن أُريقط) وهو مشرك ليدلهم على طريق لا يسلكه الناس إلا قليلا مع التوكل على الله والدعاء والتضرع إليه ﷻ ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ أي دخلوا متفرقين من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ لأن أمر الله وحكْمُه هو النافذ لا محالة إن أراد بهم خيراً أو غير ذلك ولكن الإنسان مأمور بالأخذ بالأسباب الشرعية والتوكل على الله ﷻ ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٥٤.

﴿ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ لأن يعقوب ﷺ يعرف ذلك جيداً فهو نبي ولكنه يأخذ بالأسباب ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ (أي وإن يعقوب لذو علم واسع لتعليمنا إياه بطريق الوحي، وهذا ثناءٌ من الله تعالى عظيم على يعقوب، لأنه علم بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر)[1] ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (أي لا يعلمون ما خصَّ الله به أنبياءه وأصفياءه من العلوم التي تنفعهم في الدارين)[2] ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أي احتضن أخاه الأصغر وشقيقه بنيامين وضمه إليه ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَـِٔسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فأخبره بأنه أخوه يوسف وقال له لا تحزن على ما كانوا يعملون بنا من الأذى في الماضي، مما يدل على أن بنيامين كان هو أيضاً يتعرض للأذى من إخوته الكبار بطريقة أو بأخرى، ولكن كيف السبيل لإبقاء أخيه الأصغر عنده من دون أن يعلموا بأمره ؟ ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي أعطاهم ما يحتاجون إليه من الطعام ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ (أي أمر يوسف أن تُجعل السقاية ـ وهي صاعٌ من ذهب مرصَّعٌ بالجواهر ـ في متاع أخيه بنيامين)[3] ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ (أي نادى منادٍ يا أصحاب الإبل ويا أيها الركب المسافرون أنتم قوم سارقون، وإنما إستحل أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه)[4].

﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ فهم ليسوا سارقين ليفرّوا منهم لذلك أقبلوا على المنادين وسألوهم ماذا تفقدون لأنهم واثقون من براءتهم من تهمة السرقة ﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ وهي السقاية التي مرَّ ذكرها أي المكيال ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ فمن وجده وردّهُ إلينا فله حِمْل بعير من الطعام مكافأةً له وأنا ضامنٌ له هذه المكافأة ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ أقسموا لهم بأنهم ما جاءوا إلى مصر إلا من أجل الطعام والميرة وليس غرضهم الإفساد والسرقة فهم أولاد نبي ﴿ قَالُوا۟ فَمَا

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٥٤ .
(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٥٤ .
(٣) صفوة التفاسير ٢/ ٥٦ .
(٤) صفوة التفاسير ٢/ ٥٦ .

جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ (أي ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في إدعاء البراءة)[1] ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (أي جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسْتَرَقّ ويصبح مملوكاً لمن سرق منه، وكذلك نجازي من تعدّى حدود الله بالسرقة وأمثالها، وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب وقد نسخ بقطع الأيدي في الشريعة الإسلامية)[2] ﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ لكي لا يشكّوا بأن هناك تدبيراً مسبقاً ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ عندما فتَّش متاع بنيامين وجد السقاية مخبئة فيه فاستخرجها من بين متاعه ﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ ﴾ (أي كذلك صنعنا ودبّرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده)[3] ﴿ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ ﴾ (أي ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر لأن جزاء السارق عنده أن يُضرب ويُغرم ضعف ما سرق)[4] ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (أي إلا بمشيئته تعالى وإذنه، وقد دلت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له)[5] ﴿ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾ فالله تعالى يرفع من يشاء من عباده بالعلم والحكمة والعبادة، (وفوق كل عالم من هو أعلم منه حتى ينتهي إلى ذي العلم البالغ وهو رب العالمين)[6] ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾ يقصدون به يوسف ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ ﴾ لأنه لم يكن يريد أن يعلموا بأنه هو يوسف فكتم في نفسه مقالتهم هذه واتهامهم له بالسرقة ولم يُظهِرْ الغضب على وجهه ﴿ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي قال في نفسه أنتم الذين سرقتم أخاكم من أبيكم وفرقتم بينهما والله هو الذي يعلم من هو السارق

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٥٧ .
(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٥٧ .
(٣) صفوة التفاسير ٢/ ٥٧ .
(٤) صفوة التفاسير ٢/ ٥٧ .
(٥) صفوة التفاسير ٢/ ٥٧ .
(٦) صفوة التفاسير ٢/ ٥٧ .

ومن هو البريء ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ حاولوا أن يستعطفوه ويطلبوا منه الرحمة وذلك بأن يأخذ واحداً منهم بدل بنيامين لأن أباه الشيخ الكبير سوف يحزن أشد الحزن لفراقه وتكرر الوصف له بأنه من المحسنين لِما رأوه من يوسف عليه السلام من الإحسان للناس والعطف عليهم ومساعدته لهم ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ أي نعوذ بالله من أن نأخذ البريء ونترك المتهم ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴾ فنكون في هذه الحالة ظالمين ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ بخمس كلمات فقط يمكنك أن تتصور المشهد الحيّ، وهذا هو سر الإعجاز القرآني الذي بلغ ذروة البلاغة والفصاحة والكمال والجمال ... فقد ظلّ الأخوة العشرة يجادلون عزيز مصر ويتحايلون عليه ليرد أخاهم الأصغر إليهم وهو يرفض ذلك حتى بلغ بهم اليأس كل مبلغ فانسحبوا إلى ناحية واعتزلوا جانباً عن الناس وبدأوا يتشاورون فيما بينهم ويتناجون ويقلبون الآراء ظاهراً وباطناً علّهم يجدون حلاً لهذه المشكلة العظيمة ... كل ذلك بخمس كلمات فقط (ذكر القاضي عياض في كتابه (الشفا) أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام)[1] ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ذكّرهم أخوهم الأكبر بالعهد والميثاق الذي قطعوه على أنفسهم مع أبيهم برد بنيامين إليه ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾ .

وذكّرهم أيضاً بالوعد الذي وعدوا أباهم به في شأن يوسف واخلفوا ذلك الوعد (بحفظ يوسف والاهتمام به) فهل تظنون أن أبانا سيصدق ما نقوله له بشأن بنيامين؟؟ ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ فسأبقى هنا في أرض مصر حتى يأذن لي أبي بالعودة ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ أو يقضي الله أمراً بشأن أخي بنيامين وبشأني لأن الله تعالى هو أحكم الحاكمين ولا يظلم أحداً مثقال ذرة .

وقد فعل الأخ الأكبر ذلك (أي البقاء في أرض مصر وعدم الرجوع مع إخوته إلى ديارهم)

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٦٠ .

لكي يصدّق أبوهم أن ما حدث لبنيامين لم يكن في الحسبان ولم يتوقعه أحد وهم ليسوا طرفاً في القضية علماً أن بقاء الأخ الأكبر في أرض مصر وحيداً فيه ما فيه من المشقة والجهد والوحدة ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ اللف والدوران والكذب لا ينفع والحل الوحيد هو في الصدق والحق، فقولوا لأبيكم ما حصل بالضبط وأننا ما كنا نعلم ما سيحدث من أمر السرقة حين أعطيناك العهد والميثاق فنحن لا نعلم الغيب ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ .

ولكي تتأكد من صدق كلامنا فاسأل أهل المدينة التي كنا فيها في مصر (وذلك بأن يرسل رسولاً إلى مصر للتأكد والتحقق مما جرى) واسأل أيضاً القافلة التي جئنا معها لزيادة التأكد من صدق كلامنا فهم شهدوا ما جرى وما حدث وفوق هذا وذاك فإنا صادقون في كلامنا ولا نكذب عليك .. وفعلاً قالوا له ذلك ولكن هل صدّقهم أبوهم ؟ ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أي زيَّنت لكم أنفسكم أمراً من الأمور للكيد ببنيامين والإيقاع به كما حدث ليوسف ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ نفس كلامه السابق عندما أَتَوْه بخبر يوسف بأن الذئب أكله ... فسأصبر صبراً جميلاً بلا جزع ولا إعتراض على حكم الله تعالى وتقديره ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي أرجو من الله تعالى وحده أن يعيد إليّ أبنائي فهو وحده القادر على ذلك العالم بشأنهم ومصيرهم ومكانهم الحكيم في تدبيره لأمور خلقه (أو العليم بحالي وحزني عليهم) وفي قوله ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ إشارة إلى أن يعقوب عليه السلام لم ييأس من عودة يوسف عليه السلام إليه على الرغم من مرور كل هذه السنين الطوال وانقطاع أخباره عنه البتة لذلك فهو يرجو من الله تعالى أن يعيد إليه أبناءه جميعاً يوسف وبنيامين والأخ الأكبر... قال يعقوب عليه السلام ذلك حين اشتدت به الأزمة وأشتد عليه البلاء وهو نبي يعلم أن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه ليزداد بذلك قرباً من الله تعالى ويعظم له أجره ويرفع منزلته إذا صبر واحتسب ... وهو في نفس الوقت بشر كسائر الناس يصيبه ما يصيبهم من الحزن والأذى والمشاعر

والأحاسيس وإلا فكيف يكون الإقتداء بهم إن كانوا مختلفين عن جنس البشر ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[1] ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (أي أعرض عن أولاده كراهة لِما سمع منهم وقال يا لهفي وحسرتي وحزني على يوسف)[2] .

وكما يقال فإن الحزن الجديد يهيّج الحزن القديم ويثيره ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي فقد بصره لكثرة بكائه وحزنه (وهو مملوء القلب كمداً وغيظاً ولكنه يكتم ذلك في نفسه)[3] ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ أقسموا لأبيهم بأنه إذا استمر على ذكر يوسف والبكاء عليه فسوف يمرض بسببه مرضاً يهلكه أو يموت من الحزن والأسى ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فإليه وحده أشكو ضعفي وهمّي وحزني فهو وحده القادر على إزالة الهم والغم وتفريج كربتي ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فأنا أعلم أن هذا كله ابتلاء وامتحان من الله تعالى لي وأن مع العسر يسراً وكلما زاد البلاء إقترب الفرج ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ طلب من بنيه أن يرحلوا إلى مصر ويلتمسوا أخبار يوسف وبنيامين ولا يصيبهم اليأس والقنوط من رحمة الله مستخدمين في ذلك كل حواسهم من سمع وبصر وعقل وتفكر وسؤال وجواب، فكلمة تحسسوا كلمة شاملة جامعة لكل الحواس وأن المؤمنين بربهم لا ييأسون من رحمة الله ... وفي نفس الوقت يذهبون إلى العزيز فيمتارون منه ما يحتاجون إليه من طعام ... ولكن ... بماذا سيقايضون الطعام ... فقد إشتد القحط والجدب في البلاد ولم يبقَ عند يعقوب عليه السلام وأهله بضاعة جيدة أو نقود تكفي ليمتاروا ما يحتاجون إليه من الطعام لأنهم استنفدوها في الرحلتين السابقتين ..... وربما حتى أثاث البيت البسيط اضطروا إلى بيعه على بساطته وقلته!! كما حصل لأهل العراق في أيام الحصار الظالم عندما إضطر كثير من الناس إلى بيع أثاث بيوتهم الضرورية وغير الضرورية من

(١) سورة الكهف : آية ١١٠ .

(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٥٨ .

(٣) صفوة التفاسير ٢/ ٥٨.

أجل لقمة العيش ... ذهب أبناء يعقوب عليه السلام إلى مصر للمرة الثالثة كما أمرهم أبوهم من أجل البحث والسؤال عن يوسف وبنيامين ولجلب الطعام ... وربما لم يذكر يعقوب عليه السلام الابن الأكبر الذي بقي في مصر لأنه كان متيقناً من سلامته وأنه باستطاعته تدبير أموره بنفسه والله أعلم . ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ وما كانوا ليقولوا مثل هذا الكلام وهم أبناء الأكرمين لولا الشدة والجدب والقحط الذي حلَّ بهم وبأهلهم ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾ أي بضاعة رديئة لا يقبلها أحد فلم يبقَ عندنا شيء ذو قيمة يصلح للمقايضة بالطعام ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ استرحام واستعطاف يثير الشفقة والرحمة بهم فطلبوا منه أن يتمَّ لهم الكيل ولا ينقصه بسبب رداءة البضاعة وطلبوا منه أن يتصدق عليهم ويساعدهم في محنتهم ... وهنا وأمام هذا الموقف الصعب الذي يفطّر القلب ويليّن الحديد ... باح لهم يوسف عليه السلام بما كان يكتمه ... ولعله أيضاً كان بأمر ووحي من الله تعالى لوضع نهاية لابتلاء ومحنة يعقوب عليه السلام ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ .

إنتبه الأخوة جميعهم لهذه الكلمة التي نزلت على رؤوسهم كالصاعقة .. وفغروا أفواههم ... وفتحوا عيونهم ليحدّقوا بها في وجه عزيز مصر ... ونظر بعضهم إلى بعض ... ومرّت لحظات كأنها سنين طوال ... بقدر السنين التي أبعدوه بها عن أبيه عندما كان طفلاً صغيراً هو بأمس الحاجة إلى رعاية والديه وعطفهما وحنانهما ... لا أحد يعرف بأمر السّر المدفون في قلوبهم منذ سنين طويلة سوى الله تعالى .... وهم ... و ... يوسف ... يا ألله ! ! مستحيل ..... أيُعقل هذا ؟؟ ... هل هذا العزيز صاحب الخدم والحشم والحمايات هو يوسف الذي ألقيناه في البئر قبل عشرات السنين ؟؟... الغلام الصغير الذي كان يصرخ ويستغيث ويتوسل بنا ويستعطفنا ويسترحمنا كي لا نلقيه في البئر المظلم الموحش أصبح الآن عزيز مصر فنتوسل به ونستعطفه ونسترحمه ليتصدّق علينا بالطعام ؟؟ يا ألله ... الملامح ... القسمات ... النظرات... تبدو متشابهة مع اختلاف بسيط بسبب تقدمه في السن وهيبة الملك والملابس الفاخرة ... قالوا

والدهشة والعجب قد أخذهم كل مأخذ : أئنك ... أئنك ... أئنك لأنت يوسف ؟؟ ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ (أي منَّ الله علينا بالخلاص من البلاء والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة)[1] .

ولكن لماذا كل هذا الامتنان من الله تعالى عليهم؟ ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إذن فالتقوى والصبر هما السبب في هذا الامتنان والفضل من الله تعالى، وفيه إشارة إلى أن من اتصف بهذه الصفات فهو من المحسنين الذين لا يضيّع الله أجرهم بل يجازيهم عليه أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ فقالوا تالله لقد فضلك الله علينا بسبب تقواك وصبرك وحلمك بينما نحن لم نتقِ الله فيك وفي أبينا لذلك فعلنا ما فعلنا متعمدين للذنب فكان الجزاء من جنس العمل، فماذا قال القلب الكريم الرحيم لمن آذاه وأساء إليه وأدمى قلبه وفرق بينه وبين والديه وأهله وعشيرته ووطنه عشرات السنين ؟؟

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ بالضبط نفس كلام نبينا محمد ﷺ حين نصره الله على كفار مكة يوم الفتح (إذهبوا فأنتم الطلقاء) هكذا وبكل بساطة ... بعد أن فعلوا به الأفاعيل وآذَوْه أشد الإيذاء وأخرجوه من أحب بقاع الأرض إليه وحاربوه وحاولوا قتله ... (إذهبوا فأنتم الطلقاء) نفس القلب الكبير الرحيم المتسامح ... هذا هو حال وديدن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[2].

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ فاليوم يوم المرحمة .... يوم المسامحة والعفو فلا عتب ولا لوم ولا عقوبة ولا ..... ولا..... ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وفوق كل هذا وذاك دعا لهم بالمغفرة والرحمة من الله تعالى فهو تعالى أرحم مني ومن أبي ومن جدي ومن الناس أجمعين ... فهو أرحم الراحمين ...، وبالتأكيد فإن يوسف عليه السلام أول سؤال تبادر إلى ذهنه

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٥٩ .

(٢) سورة الشورى : آية ٤٣.

هو سؤاله عن أبيه ... كيف هو ؟ ... صحته ؟ ... حاله ؟ فأخبروه بذهاب بصره حزناً وكمداً عليه فقال لهم ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (وبالتأكيد فإن يوسف عليه السلام ما علم أن إلقاء القميص على وجه أبيه يرد له بصره إلا بوحي من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك لأن العقل لا يدل عليه)[1] ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أي بعد أن خرجت القافلة من مصر متجهة إلى الشام موطن سيدنا يعقوب عليه السلام قال يعقوب عليه السلام لمن كان جالساً عنده إني أشم رائحة يوسف ! ! فيا له من حب !! ويا له من شوق!! وكلمة تفندون تعني (تسفهوني وتنسبوني إلى الخرف وهو ذهاب العقل وجواب لولا محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حي)[2] ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ اتهموه بالخطأ والبعد عن الصواب لأنهم يعتقدون أن يوسف ذهب من غير رجعة ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ ﴾ أي وصل الذي يحمل البشارة بحياة يوسف ﴿ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ أي ألقى القميص على وجه يعقوب عليه السلام فرجع إليه بصره لشدة فرحه وسروره بحياة يوسف عليه السلام ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ لأن يعقوب عليه السلام يعلم أن يوسف حي وأن الرؤيا التي رآها في منامه وهو صغير لابد أن تتحقق (رُوي أنه سأل البشير كيف يوسف ؟ فقال : هو ملك مصر، قال : ما أصنع بالملك! على أي دين تركتَه ؟ قال : على دين الإسلام، قال : الآن تمّت النعمة)[3] ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم لأنه نبي وهو أبوهم فيكون أدعى لأن يقبل الله تعالى استغفاره لهم، والله أعلم .

وكرروا قولهم واعترافهم بالذنب ﴿ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ مرةً أمام يوسف عليه السلام ومرة أمام أبيهم ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ﴾ (وعدهم بالاستغفار، قال المفسرون : أخرَ ذلك إلى السَّحَر ليكون أقرب إلى الإجابة وقيل : أخرّهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة، يقول سيد

(١) تفسير الطبري ج١٣ ص ٥٧.

(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٦١.

(٣) صفوة التفاسير ٢/ ٦٢.

قطب عليه الرحمة : وحكاية عبارته بكلمة (سوف) لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم فإنه يعدهم بالاستغفار بعد أن يصفو ويسكن ويستريح)[1] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهو تعالى كثير المغفرة لذنوب عباده واسع الرحمة بهم ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ (ضمّ إليه أبويه واعتنقهما)[2] ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ إذ أن الأمور كلها بمشيئته ﷻ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فأجلسهما على سرير الملك إكراماً لهما واعترافاً منه بفضلهما عليه من بعد الله تعالى وإحساناً منه لهما ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ فسجد له أبوه وأمه وإخوته الأحد عشر سجود تحية واحترام وتقدير وليس سجود عبادة وبهذا تحققت الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام في المنام وهو صغير ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ فقال لأبيه هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها في المنام عندما كنت صغيراً قد جعلها ربي حقيقة وصدقاً اليوم، ثم بدأ يذكر نِعَم الله تعالى عليه وفضله وكرمه وإحاطته بالعناية والرعاية الربانية ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ .

(قال المفسرون : لم يذكر قصة الجب تكرماً منه لئلا يُخجل إخوته ويذكّرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم)[3] فالموقف موقف مسامحة وحب ومودة وصلح لا موقف عتاب وحساب وعقاب، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ فنقلهم الله تعالى من البادية إلى الحضر وهي نعمة من نِعَم الله تعالى ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ فالشيطان هو السبب الرئيسي للإفساد بين الإخوة والأحباب ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ (أي لطيف التدبير يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها)[4] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو العليم بما يُصلح العباد وأحاط علمه بكل شيء ولا يصدر عنه شيء إلا بحكمة بالغة، وبعد أن ذكر نِعَم الله تعالى وفضله عليه توجه بالدعاء الخالص لله رب العالمين لأن الدعاء مخ العبادة ... وهو العبادة

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٦٢.
(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٦٢.
(٣) صفوة التفاسير ٢/ ٦٢ .
(٤) صفوة التفاسير ٢/ ٦٢ .

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ وهو تفسير الرؤيا ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (أي يا مبدع السماوات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق)[1] ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فأنت يا الله متولي أموري كلها في الدنيا والآخرة ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وهو ليس تمنٍّ للموت وإنما طَلَبَ من الله تعالى أن يحفظ له إسلامه حتى يموت ويجعل مثواه ومستقره مع الصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقا.

إلى هنا انتهت قصة يوسف عليه السلام ..... قصة الحياة التي تتكرر في كل زمان و مكان، حتى ولو بلغت الأمم والحضارات من التقدم والرقي الشيء الكثير فإنه يبقى حسد الإنسان لأخيه الإنسان والجشع والطمع والظلم ما لم يلتزم الإنسان بأخلاق الإسلام وتعاليمه، فالحضارة المادية لا تكفي وحدها للارتقاء بالإنسان وإسعاده .

هاهي حضارة الغرب المادية التي بلغت ما بلغت من التقدم والتطور والرقي هل استطاعت أن تحرر الإنسان من قيود الشهوات والنزوات ؟؟ وهل استطاعت أن تسعده ؟ أكبر نسبة من الانتحار والتفسخ الأخلاقي وانهدام الأسر والظلم تراه في بلدان الغرب الكافر والشرق الملحد ... لأنهم تركوا الجانب الروحي المتصل بالله تعالى الرقيب على كل شيء والذي يحاسب الإنسان على كل صغيرة وكبيرة يوم القيامة ويجازيه عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر وتمسّكوا بالجانب المادي فقط .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فلم تكن تعرفها يا محمد ولا قومك قبل أن نوحيها إليك ونخبرك بتفاصيل هذه القصة الرائعة ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ فأنت يا محمد لم تكن معهم لتطّلع على أحوالهم وكيدهم ومكرهم وما كان من أمرهم لتخبر قومك به وإنما هو من جهة الوحي فقط فلو كان عندهم مثقال ذرة من عقل وإدراك وتفكر وتدبر لآمنوا فوراً ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فمع شدة حرصك على هدايتهم وإيمانهم يا محمد ولكنهم مصرّين على عنادهم وكفرهم ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٦٣ .

ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فأنت يا محمد لا تطلب منهم مالاً أو متاعاً أو منفعة أيّاً كانت مقابل هذا النصح والإرشاد وأخبار الأمم السابقة حتى يثقل عليهم ويرفضوه وإنما هو موعظة وتبصرة وذكرى لعلهم يؤمنون بالله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ أين ذهبت عقولهم ؟؟ الآيات الدالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته وإنفراده بالإلوهية والربوبية لا تعد ولا تحصى ... في السماوات هناك الشمس والقمر والنجوم والمجرات والكون الهائل العجيب المنظم تنظيماً دقيقاً عجيباً والمحسوب بدقة متناهية تبهر العقول وتحيّره ... وفي الأرض هناك الجبال والأنهار والبحار والحدائق الغنّاء والحيوانات والحشرات و ... و ... و ... وفوق هذا وذاك هناك آثار الأمم الماضية التي كذّبت رسلها وكفرت بربها وخالقها فعذّبها الله تعالى ودمّرها وأبقى آثارها لتكون عبرة لمن يعتبر ... يشاهدها كفار مكة في أسفارهم أفلا يتّعظون بغيرهم ويعتبرون ؟ ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ فمع أن هؤلاء الكفار يؤمنون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق إلا أنهم يعبدون الأصنام ظناً منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ فهل يأمن الكفار والمكذبين بآيات الله أن يعاقبهم الله كما عاقب الأمم الماضية بعذاب يغشاهم ويحيط بهم ﴿ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ أي يأتيهم يوم القيامة فجأة وهم لا يشعرون بقرب مجيئها منغمسون في شهواتهم وعصيانهم وكفرهم فتبغتهم بأهوالها وشدائدها ولا ينفع حينئذٍ الندم والتوبة ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾ قل يا محمد إن طريقي واضح ومستقيم لا لف فيه ولا دوران ولا اعوجاج، طريق الإيمان بالله تعالى والتوحيد الخالص... طريق الإسلام ﴿ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ أدعو إلى دين الله ... الإسلام ... دين التوحيد والإخلاص ... دين الأنبياء والرسل جميعاً ... لا عن شك أو اجتهاد أو رأي وإنما عن بصيرة وحجة وبرهان وتأييد من الله تعالى، ومن اتبعني أيضاً يدعون إلى نفس المبدأ في كل زمان ومكان وإلى قيام الساعة .

﴿ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (أي و أنزهه سبحانه عن الشركاء والأنداد فأنا مؤمن

موحد ولست من المشركين)[1] ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ فالأنبياء والرسل كلهم رجال من البشر وليسوا ملائكة وليس هناك امرأة من الأنبياء والرسل ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ ﴾ (أي من أهل المدن والأمصار لا من أهل البوادي)[2] ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ عاقبة المكذبين المعاندين من الأمم الماضية وما حلّ بهم من دمار وخراب فإن آثارهم قد أبقاها الله تعالى للموعظة والعبرة لا للمتعة كما يفعل كثير من الناس اليوم حين يذهبون إلى المواقع الأثرية ويقيمون هناك الاحتفالات والمهرجانات الغنائية الراقصة وينفقون ملايين الدولارات في الفساد والإفساد والاختلاط والتبرج ودعوة الفرق الغنائية والموسيقية الراقصة العربية منها والأجنبية ويحاربون الله ورسوله علانية وآثار تعذيب الأمم الماضية تحيط بهم من كل جانب و تصرخ بهم محذرة من عقاب الله تعالى وعذابه .. ولا من مجيب ولا من سامع ولا من متّعظ والأدهى من كل ذلك أن أي شخص يعارض هذه المهرجانات ويحذّر منها ومن عواقبها السيئة ويدعو الناس إلى تركها وعدم الذهاب إليها فيا ويله وسواد ليله ... فإن مصيره السجن والتعذيب ومنعه من الخطابة إن كان خطيباً في مسجد وهذه أبسط عقوبة تناله، هذا إذا لم يُقتل هو وأبناؤه وعشيرته ومن صادقه ومن جاوره ومن... ومن... لهذا وصل حالنا اليوم إلى ما وصل إليه من الذل والهوان والاحتلال ويتساءل كثير من الناس بعد ذلك : لماذا هذا العذاب الذي حل بالعراق ؟؟ ونسوا عندما كانوا يتراكضون ويتزاحمون لشراء بطاقات الحجز في قاعات هذه المهرجانات الفاسدة مثل مهرجان بابل لئلا يفوتهم سماع المغني الفلاني أو مشاهدة رقص الفرقة الفلانية بين أطلال الأقوام السابقة التي عذبها الله بسبب فسادها وفجورها لذلك فإن الآية الكريمة ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ فيها تحذير ما بعده تحذير ليس لكفار قريش وحدهم بل لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد إلى يوم القيامة.

---

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٦٣-٦٤ .

(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٦٤ .

﴿ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾ نعم فإن دار الدنيا فانية... زائلة مهما استمتع بها الإنسان فمصيرها إلى الزوال والفناء أما دار الآخرة فلا شيء فيها إسمه الموت أو النهاية بل هو البقاء الأبدي والخلود الدائم إما في الجنة (للمؤمنين الموحّدين المتقين) وإما في النار والعياذ بالله (للكفرة المجرمين المشركين) وليس بينهما حل وسط، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فأين عقولكم أيها الناس لتفكروا بها وتميزوا بين الحق والباطل وما ينفعكم وما يضركم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ أي بلغ يأس الرسل من إيمان قومهم بهم كل مبلغ ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ (أي أيقن الرسل أن قومهم كذّبوهم)[1] ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ .

فعند هذه اللحظة التي بلغ يأس الرسل من إيمان قومهم حداً كبيراً وأيقنوا بتكذيب قومهم لهم يجيء نصر الله للرسل والمؤمنين معهم ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ﴾ (أي فنجينا الرسل والمؤمنين بهم دون الكافرين)[2] ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ومَنْ الذي يستطيع أن يرد عذاب الله وبطشه إذا أرسله على المجرمين ؟؟ لا أحد ... وفيه من التحذير والإنذار ما لا يخفى لكفار قريش ولغيرهم إلى يوم الدين ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ قصص الأنبياء والمرسلين وما لاقَوْه من قومهم وما أصاب المكذبين والمعاندين لهم .

هذه القصص فيها موعظة وتذكرة ما يكفي لأصحاب العقول النيّرة الواعية لأن تؤمن بدعوة الرسل وتنقاد لله تعالى، وفي الآية إشارة إلى أن مَنْ لم يتعظ ويعتبر فليس من أصحاب العقول السليمة، وفيها إشارة أيضاً إلى الحث على استعمال العقل والتفكر فيه لا أن يظل جامداً متقوقعاً كالذين قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

هكذا بلا تفكر ولا تدبر ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ فهذا القرآن الكريم هو كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وليس من افتراء المفترين ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (أي ولكن كان هذا القرآن مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية المنزّلة من

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٦٤ .

(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٦٤ .

قبل)[1] ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فهو(تبيان كل ما يحُتاج إليه من أحكام الحلال والحرام والآداب والأخلاق ووجوه العبر والعظات)[2] ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهو كتاب هداية ورحمة لمن آمن به وعمل بمقتضاه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

(١) صفوة التفاسير ٢/ ٦٤ .

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٢٣٨